رواد الفكر التربوى

د. شبل بدران
أستاذ ورئيس قسم أصول التربية
كلية التربية - جامعة الإسكندرية

٢٠٠١

الكتاب : رواد الفكر التربوى

المؤلف : د. شبل بدران

الطبعة : الأولى ٢٠٠١

رقم الايداع : ١٨٨٤٧ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى : 977 - 273 - 229 - 9
I. S. B. N.

الناشر : دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الازاريطة - الاسكندرية
ت: ٤٨٧٠١٦٣
٢٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - الاسكندرية
ت: ٥٩٧٣١٤٦

رواد الفكر التربوى

« إن الأمة التى تتقدم فيها التربية تشهد التقدم والتمدن على وجه تكون به أهلا للحصول على حريتها، بخلاف الأمة القاصرة التربية، فإن تمدنها يتأخر بقدم تأخر تربيتها .... فالتربية هى أساس الانتفاع بأبناء الوطن .... »

«رفاعة رافع الطهطاوى»

مقدمة

كانت التربية ولازالت معبره عن حركة تطور المجتمع الانسانى، وظلت تهدف التربية الحديثة الى تحديث وتطوير المجتمع الإنسانى من خلال أماطة اللثام عن جوانب العجز والقصور وكشف التناقضات فى الواقع المعيش، من هنا كان هناك رجال فكر وسياسة واقتصاد لعبوا دوراً بارزاً فى تطور حركة الفكر التربوى فى المجتمعات الانسانية عامة، وكان لكل منهم دورة السياسى الاقتصادى والثقافى والتربوى.

فأفلاطون وارسطو، وچون لوك، وهوبرت سبنسر، كومنيوس، روسو، ڤولتير، مونتسيكو، انطوان مكارنيكو، چون ديوى، وباولوفريرى، مايكل أبل، بيربورديو، هربرت چينتس، صمول بولز، وغيرهم كثير فى الفكر التربوى الغربى.

وفى الشـــرق وتحديداً بعد انفتاح الحضارة العربية والمصرية على الحضارة الغربية عقب الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ والثقافة العربية والمصرية صـدمت بانجازات الثقافة والحضارة الغربية، التى كانت هى جزء من حضارتنا فى فترة زمنية سابقة، وظل هناك صراع لليوم سمى فى الادبيات السياسية والثقافية والتربوية، بصراع (الاصالة والمعاصرة - الوافد والموروث، الانا والأخر ... الخ).

وتشددكل فريق لمقولاته وقناعاته، وظل فريق ثالث حاول التوفيق والتلفيق بين اصحاب تلك الاتجاهات، والتى لعبت القوى الخارجية دوراً مبرزاً فى تعزيزها وذلك لتكريس الصراع الفكرى السياسى والايديولوچى بين أبناء الأمة الواحدة ذات التاريخ الواحد.

ولقد أدت كل تلك التحولات الى ظهور رجالات للسياسة والفكر

والادب أثروا الحياة التربوية والثقافية، وكانوا رواداً للتنوير الثقافى والتربوى واعلاماً لحركة الفكر التربوى فى المنطقة العربية منذ مطلع القرن التاسع عشر ولليوم.

ولم تكن حركة الفكر التربوى التى ظهرت على أيدى هؤلاء الرواد وليدة الصدفة أو نزلت علينا من السماء، ولكنها كانت جزءاً من حركة الصراع الاجتماعى والسياسى والثقافى فى المنطقة خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ولقد ارتبطت تلك الحركة بمقاومة الاحتلال والاستعمار الاجنبى الذى ظل لسنوات طويلة يمارس الهيمنة والتسلط على مقدرات وطننا سواء على الصعيد الاقتصادى أو السياسى..

من هنا فأن نشأة تلك الحركة التربوية أرتبط بالاساس بجوهر الصراع الاجتماعى الداخلى والصراع مع القوى الاستعمارية. ولقد انصب اهتمام رواد الفكر التربوى حينذاك فى محاولة نشر التعليم والثقافة وإشاعة روح النقد والتنوير فى مواجهة تلك القوى الاستعمارية، ولقد ترتب على ذلك ان الفكر التربوى فى تلك الفترة ركز على تحرير الانسان من كافة أصناف القهر والتسلط الواقعة عليه بإعتبار ذلك الخطوة الأولى فى تحرير الوطن الكبير، لأنه لايمكن تحرير الوطن من خلال مواطنين غير احرار ومحررين ذهنيا وثقافيا ..... الخ.

وهؤلاء الرواد الذين تقدم لهم اليوم لم تتوقف جهودهم على الفكر التربوى، بل هم انشغلوا بالاساس بالفكر السياسى والاجتماعى والثقافى، وسواء كانوا جزء من السلطة حينذاك وأحد اعمدتها – الطهطاوى، على مبارك – أو كانوا خارج السلطة وفى مواجهتها بالدرجة الأولى، الا أن القاسم المشترك الذى جمع بينهم هو سعيهم الدؤوب نحو تحرير

الانسان وتحرير الوطن فى أفق من العداله والحرية والاستقلال السياسى والاقتصادى.

والكتاب الذى بين يديك أيها القارئ الكريم يقدم أربعة من «رواد حركة التنوير فى مصر» هم: رفاعة رافع الطهطاوى وعلى باشا مبارك ومحمد عبده ومصطفى كامل. وهم جميعا قد نادوا «غفاة البشر» كما يقول الشاعر عمر الخيام، وقادوا حركة التحرر الفكرى فى مصر فى مطلع القرن التاسع عشر، ولقد كان هدفهم ايقاظ الوعى الانسانى فى النفوس، وتنبيه الناس الى الأخطار المحدقة بهم فى الداخل والخارج. ولقد كانت المبادئ التى دعا اليها كل واحد من هؤلاء المفكرين، هى نفسها المبادئ الضرورية لقيام وعى انسانى مستنير.

هذا الى جانب أن هؤلاء الرواد جميعا يشتركون فيما بينهم فى سمات واضحة جعلتهم، على اختلافهم فى الزمان ينتمون الى حركة فكرية واحدة هى «حركة التنوير» هذه الحركة التى بدأت بجهود الشيخ حسن العطار ومحاولاته العديدة فى تطوير الأزهر من جموده والاستفادة من معارف وعلوم الحملة الفرنسية، ولقد تتلمذ على يديه الطهطاوى وأصبح من دعاة حركة التنوير الفكرى، وبعث روح الأمة المصرية، وامتدت هذه الحركة عند على باشا مبارك الذى لم يتعلم التعليم الدينى، ولكنه كان كما يقول الكتاب «ابن مدارس» كما تبلورت هذه الحركة الفكرية فى جهود الأستاذ الامام محمد عبده ودعوته الى تحكيم العقل وتنوير الأذهان وبعث روح الشرق الاسلامى.

قبل محمد عبده كانت لتلك الحركة بذورها عند أستاذه جمال الدين الأفغانى، الذى قد أسهم بدور فعال فى نشر الوعى القومى وايقاظ النفوس

والضمائر، حيث كان الأفغانى من دعاة التنوير السياسى والاجتماعى فى الشرق الاسلامى، واستمر هذا التيار ونما فى فكرمصطفى كامل باعث الحركة الوطنية وربما يعود ذلك الى استفادته من أخطاء الثورة العرابية ولقاءاته العديدة والمستمرة مع عبد الله النديم وكذلك الى أسفاره العديدة الى أوروبا وفرنسا. ولقد استمر هذا التيار التنويرى فى الواقع المصرى فى فكر الشيخ مصطفى عبد الرازق وشبلى شميل واسماعيل مظهر وسلامة موسى وطه حسين وغيرهم كثير فى الواقع الثقافى المصرى والعربى.

والجديد الذى يقدمه هذا الكتاب اليك أيها القارئ، هو القاء الضوء على فكر هؤلاء الرواد التربوى واسهاماتهم فى حركة التربية والتعليم، والتى كانت مجالا للصراع الاجتماعى والسياسى فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العشرين، حيث أسهم هؤلاء الرواد بجهد واضح وفكر مستنير فى حركة الفكر التربوى الحديث التى شهدها الواقع المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر.

د. شبل بدران

أستاذ ورئيس قسم أصول التربية

كلية التربية - جامعة الاسكندرية

الفصل الأول

رفاعة رافع الطهطاوى رائد النهضة الثقافية فى مصر

- حياتـــه
- ملامح فلسفته التربوية





رفاعة رافع الطهطاوى

(١٨٠١ - ١٨٧٣م)

رفاعة رافع الطهطاوى

رائــد النهضة الثقافية فى مصر فى القرن التاسع عشر

(١٠٨١-١٨٧٣)

أولاـ نشأته:

هو السيد رفاعة بن بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع ويلحق نسبهم بمحمد الباقر بن على بن زين العابدين بن الحسين بن فاطمة الزهراء (١). ولد فى طهطا عام ١٨٠١ من أسرة عادية حيث كان أبواه فقيران، قرأ القرآن، وتلقى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم فى عصره (٢). ولقد تنقل رفاعة مع أبيه الذى ضاقت به أسباب العيش فى بلده، لايعوق أبيه الترحال عن تحفيظه القرآن، حتى استقر فى بلده طهطا وفيها أتم حفظ القرآن الكريم. ثم وفد على القاهرة فى عام١٨١٧ والتحق بالأزهر ومكث به نحو خمس سنوات ختم فيها دروسه، وأصبح أهلا للتدريس به (٣).

صحب البعثة العلمية الأولى إلى باريس فى عام ١٨٢٦ اماما لطلبة البعثة يؤمهم فى الصلاة، ويعظهم ويرشدهم. ولكن بهرته الحضارة الأوروبية، فعكف على دراسة اللغة الفرنسية من تلقاء نفسه، ثم اتجهت ميوله بعد ذلك إلى دراسة التاريخ والجغرافيا والفلسفة والآداب الفرنسية، وقرأ مؤلفات فولتير ومونتسكيو وراسين (٤) فبدأ يقارن بين ماعندنا وماعند الغرب ويبحث أسباب التخلف والتأخر ومن هنا بدأ اتصال رفاعة بأفكار فلسفة التنوير المتمثلة فى كتابات فولتير وروسو ومونتسكيو وأخذت الحياة تدب فى عقله، وبدأ يتذكر وصايا أستاذه حسن العطار فى تسجيل مشاهداته فى

فرنسا، ومحاولته ترجمة كل ماله صلة بتقدم مصر. ومن هنا أخذ عقل الطهطاوى يعى الأمور ويدرك القيمة الحقيقية للبعثة، كذلك أخذ يدرك مقدار مايمكن أن تستفيده بلاده منه لو سخر كل قواه لنقل هذه الحضارة الى مصر. ولقد كان ذلك، حيث أهتم بعد عودته بالترجمة وأنشأ لها مدرسة.

(أ) تأثير الشيخ حسن العطار فى تكوين فكر الطهطاوى:

كان أشد معلميه تأثيراً عليه الشيخ حسن العطار، وهو واحد من أعظم العلماء فى ذلك الوقت، وقبل ذلك بعشرين عاما كان الشيخ حسن العطار أحد المصريين الذين زاروا معهد بونابرت العلمى. ورأى هناك بعض العلوم الأوروبية الحديثة. وقد يكون الطهطاوى قد تعلم شيئا منه، ولكنه مدين بأكثر من هذا لأستاذه، فقد كان العطار هو الذى سعى إلى تعيينه اماما لأحدى كتائب الجيش المصرى الحديث، ثم اماما للبعثة التعليمية التى أرسلها محمد على للدراسة فى باريس (٥) ولاشك أنه الاستاذ الوحيد الذى أثر فى تكوين فكر الطهطاوى أثراً بعيداً ومهد له طريق الانفتاح على الثقافة الأوروبية. عرفه الطهطاوى فى الأزهر فاتصلت العلاقة الفكرية بين الاستاذ المستنير والتلميذ النابه، وظلت هذه العلاقة قوية فعالة مؤثرة فى حياة الطهطاوى. ولقد كان الشيخ العطار فريدا فى موقفه من الجديد الذى جاءت به الحملة الفرنسية. لقد جاءت بجيش حكم البلاد وتولى السلطة وجاءت بعلماء ومكتبة وأجهزة علمية، كما جاءت أيضا بنمط من السلوك الاجتماعى يقوم على اساس تحرير المرأة ومشاركتهافى الحياة العامة (٦). ولقد اعجب العطار بكل ذلك وحاول بكل ماأوتى من جهد ومثابرة على أن يستفيد من ذلك كله، ولما يأس من أى اصلاح حاول

أن يبث ذلك فى تلميذه النابه الطهطاوى، آملا أن يحقق ماعجز هو عن تحقيقه من آمال

ولقد عرف فيه العطار اتجاها إلى التجديد وميلا إلى المعرفة التى لاتحدها علوم الأزهر وحلقات شيوخه، ولعله رأى اقباله على الشعر العربى والأدب وحبه للفلسفة والمنطق والثقافة العربية القديمة التى إنصرف عنها غيره من العلماء ـ إلا قلة لاتذكر ـ ماقربه اليه (٧). ولقد احاطه العطار بالرعاية والتوجيه، وعقد عليه بعض ماكان يأمل فرشحه للسفر إلى باريس على فراسته، ليكون له شأن قيم يدعو اليه من تطور وتجديد. ولقد كان حسن حظ الطهطاوى أنه تتلمذ فى الأزهر على الشيخ حسن العطار، فقد كان الشيخ سابقا لعصره حيث طاف فى الأرض وسافر بحراً وبراً، وزار بلاد الشام واتسع أفقه، وازداد ذلك عند اتصاله بعلماء الحملة الفرسية، حيث أخذ يعقد المقارنات بين علوم المصريين التى درسها ويدرسها فى الأزهر، وعلوم الغرب، التى شاهد بعضها عند علماء الحملة فوجد الفرق شاسعاً والبون كبيراً، بيننا وبينهم، ونادى بضرورة تغيير أحوال البلاد (٨).

ولما كان ذلك كذلك، فان الطهطاوى قد استفاد أعظم مافى فكر استاذه وهو «التنوير» وحبه للعلم والمعرفة وميله إلى التجديد. ولقد لازم ذلك الطهطاوى فى البعثة وكذلك ظل يلازمه حتى بعد مجيئه الى مصر. ومن هنا نستطيع أن نؤكد أن جذور التنوير والاستنارة فى فكر الطهطاوى ممتدة إلى استاذه الشيخ حسن العطار، الذى يمكن اعتباره أول رائد حقيقى لحركة التنوير المصرية فى بداية القرن التاسع عشر، حيث كان الظلام يخيم على الأمة المصرية، والجهل يسود عقول أفرادها والتقليد الأعمى والجمود

سمة من سمات هذا العصر. ومن ذلك، فالعطار صاحب الدعوة الأولى للتنوير، ولقد حمل الراية من بعده، ابنه وتلميذه ألا وهو الطهطاوى الذى قدم اسهامات عظيمة فى الفكرالمصرى الحديث والثقافة العربية حينذاك.

(ب) تأثير فلسفة التنوير فى تكوين فكر الطهطاوى:

لقد تركت فلسفة التنوير الفرنسية علامة مستمرة عليه وبالتالى على طريقة تفكير العقل المصرى الحديث. وبعض هذه الأفكار الخلاقة (أفكار فلسفة التنوير) التى لم تكن غريبة على واحد نشأ فى تقاليد اسلامية سياسية. وقد انتظم هذا الرجل كعضو فى المجتمع الذى يقوم على توجيه من مبادئ العدالة، وأن هدف الحكومات يجب أن يكون رفاهية المحكومين (٩) وبدراسة الطهطاوى لأعمال فلاسفة الثورة الفرنسية فولتير ومونتسكيو وروسو وكوندياك، وكذا بعض آثار فلسفة التنوير، استطاع أن يطور فكرته عن التقدم والتطور والتجديد. وكان يعيش فى عصرمن أكثر العصور تقدمية واستنارة، فتلقى بفكره ووجدانه من منابعها الأولى كل تلك الفلسفات الخطيرة العميقة الرهيبة، العقلانية منها والوجدانية، المادية فيها والمثالية على السواء (١٠) الا أنها كانت ضرورة حتمية لزلزلة الملكية المستبدة القائمة على الحق الالهى والنظام الاقطاعى الارستقراطى بامتيازاته الطبقية وطغيانه المادى والروحى. وضرورة تقويض دعائمه واعادة بناء المجتمع الانسانى على أسس جديدة من الحرية والمساواة والاخاء.

ويؤكد الطهطاوى نفسه تأثره بهذه الفلسفة بقوله: «قرأت من كتب الأدب، فمنها مختارات نويل وفيها عدة مواضع من ديوان فولتير وديوان

راسين وديوان روسو خصوصا مراسلاته الفارسية التى يعرف بها الفرق بين آداب الأفرنج والعجم، وهى أشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية. وقرأت أيضا وحدى مراسلات انجليزية صنفها «كونت شيشرفيلد» (١٦٩٤ ـ ١٧٧٣) لتربية ولده وتعليمه وكثيرا من المقامات الفرنسية، وبالجملة فقد اطلعت فى آداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة [١١].

وهكذا أتيح للطهطاوى أن يطلع على أعمال فولتير وراسيين وأن يعرف كتاب المراسلات الفارسية ـ وهو لمونتسكيو وليس لروسو كما ذكر الطهطاوى ـ ولقد ذكر الطهطاوى أيضا: «وقرأت مع مسيو شواليه جزءين من كتاب يسمى «روح الشرائع» "Montesquieu, "L'Esprit des Lois ومؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له مونتسكيو. ويبدو من كلام الطهطاوى اعجابه الشديد بمونتسكيو، فهو «شهير بين الفرنساوية» وكتابه المذكور «أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين» ويحاول الطهطاوى تقريب الفكر السياسى عند مونتسكيو فيقول: «ويلقب عندهم بابن خلدون الأفرنجى كما أن ابن خلدون يقال له عندهم : مونتسكيو الشرقى أى مونتسيكو الاسلام » [١٢] وإلى جانب هذا قرأ الطهطاوى فى اعجاب كتاب «العقد الاجتماعى لروسو "Le contact So-cial" حيث يقول وقرأت أيضا فى هذا المعنى كتاب يسمى: عقد التآنس والاجتماع الانسانى مؤلفه يقال له روسو ويعلق على هذا الكتاب تعليق اعجاب وتقدير فهو «عظيم فى معناه» والذى لاشك فيه أن كل تلك القراءات المستنيرة لهؤلاء الفلاسفة قد أثرت بلا شك فى تكوين فكر الطهطاوى وجعله يجنح نحو العقلانية والاستنارة كسبيل للخلاص من التأخر والجهل.

ثانيا ـ ملامح فلسفة الطهطاوى التربوية:

كان التعليم سبيل الطهطاوى إلى الاحياء والتجديد وبعث النهضة، فعاش طوال حياته يعلم ويرشد ويوجه ويترجم، ويبدو أنه منذ عرف مايمكن أن يقدمه لبلاده قد وطن نفسه على أن يكون معلما. فلم يكون هناك سبيل للارتقاء غير تعليم الناس وتوجيههم الى الغاية من حياتهم، وعلم تلاميذه كيف يعلمون (١٣) ويمكن تقسيم ملامح فلسفته التربوية الى النقاط الآتية:

١ ـ ضرورة التربية فى تقدم المجتمع:

يعرف الطهطاوى التربية بأنها : «فن تنمية الأعضاء الحسية والعقلية وطريقة تهذيب النوع البشرى، ذكرا كان أو أنثى، على طبق أصول مطلوبة، يستفيد منها الصبى هيئة ثابتة يتبعها، ويتخذها عادة، وتصير له دأبا وشأنا وملكة» (١٤). وفى هذا التعريف نشتم أن التربية عملية نمو وتعمل على تكوين اتجاهات وميول الفرد وتؤثر فى سلوكه وتصرفاته. ويضيف الطهطاوى إلى ذلك بقوله أن تغذية الطفل تتم على ثلاث ضروب: الضرب الأول: هو تغذيته بالطعام لكى ينمو جسمه. والضرب الثانى: تغذية خلقه بتعويده العادات والطباع المرغوبة. والضرب الثالث: تغذية عقله بتعليمه المعارف وألوان العلوم ـ وبذلك يجمع رفاعة الطهطاوى بين التربية الجسمية والعقلية والخلقية. ويرى أن الأمة السعيدة هى التى أحسنت تربية بنيها، فإن تربية الأفراد تربية حسنة سوف يؤدى إلى النهوض بالهيئة الاجتماعية ككل.

وارتكانا إلى هذا الفهم، تعد التربية فى رأى الطهطاوى ضرورة للإنسان

لايستطيع أن يستغنى عنها، فالانسان يتميز بين سائر المخلوقات بالعقل وهو وسيلة حماية الانسان لنفسه على عكس الحيوانات التى تمكنها قوتها الجسدية من أن تحمى نفسها.

وقد قارن الطهطاوى قوة الحيوان الجسدية وقوة الانسان العقلية على النحو التالى: «منحت الحكمة الالهية الحيوانات الوحشية سلاحا تدفع به عن نفسها وتسطو به على أبناء جنسها وغير جنسها، اما الانسان فهو مجرد عن ذلك ومعرض بجميع أعضائه للمهالك. (١٥). فاذا كان الانسان قد أوتى بدلا من القوة الجسدية العقل والقدرة على التعلم واكتساب المهارات فان ذلك يتم بالتربية والتربية وحدها، وفى هذا الصدد يقول الطهطاوى: «الانسان خرج من بطن أمه لايعلم شيئا ولايقدر على شئ الا بالتربية والتعليم، فوجب تربيته وتعليمه وارشاده للمعيشة والتعليم وتعويده على أن يتفكر ويتأمل، فبهذا كان محتاجا إلى مالا يعد ولايحصى من أدوات المعاناة والتمرين والتجربة والممارسة على مدى الزمن». (١٦)

ولما كان ذلك كذلك، فان التربية فى نظر الطهطاوى تعد ضرورة عامة عند البشر، فهم فى حاجة دائمة اليها ويستطيعون التعلم واكتساب المهارات والخبرات على نحو يمكنهم من التغلب على صعوبات الحياة والافادة من الطبيعة والكائنات الأخرى لخدمة الانسان. لأن القدرة العقلية عند الإنسان هى التى أتاحت له أن يحمى نفسه من جانب وأن يكون سيد الكائنات من الجانب الآخر. لم يتح هذا للإنسان بطاقته الجسدية، بل تمكن الإنسان من ذلك بقدرته العقلية التى لايحدوها شئ. ومن هنا نشتم تأكيد الطهطاوى على العقل وأهميته وضرورته الحتمية فى تحكمه فى نواحى حياتنا وهو هنا متفق تماما مع فلاسفة التنوير الذين آمنوا ايمانا مطلقا بقدرة العقل على تغيير الواقع المعاش، تغييرا يتمشى مع متطلبات العصر.

والطهطاوى نفســه يؤكد هذا المعنى بقوله: «لايقال أن جميع ماخلقه الله انما هو لأجل هذا الانسان من حيث جسمانيته بل من حيثية أخرى امتاز بها وهى عقله وعلمه» (١٧). وبذلك أكد الطهطاوى أهمية العقل بالنسبة للإنسان، وأن من واجبه أن يفيد من قدرته العقلية للتعلم واكتساب المهارات والخبرات الجديدة وبذا يتغلب على صعوبة الحياة ويسود الكون وترتقى قدراته ومعارفه ويصبح أهلا للحياة. وكذا يصبح قادرا على تغيير أحوال المجتمع، ومن هنا أتت التربية بهذا المعنى ضرورة للإنسان. لأنها ولاشك فى ذلك ضرورة لتقدم المجتمع ودفعه فى اتجاه التطور وجنوحه عن اتجاه الجمود والتخلف.

٢ ـ أهمية تعليم البنين والبنات:

لقد كان هدف الطهطاوى من وراء تعليم الشباب من الجنسين أن يقوم غرائزهم، فلا تضل من قراءة مايفسدها أو ينحرف بها إلى الشذوذ ومجافاة الفضيلة، وكأنه يستهدف للتربية مذهبا واقعيا أقرب مايكون إلى برجماسية «جون ديوى» وقبل ديوى بعشرات السنين. ونرى هذا الاتجاه إلى الواقعية فى التربية مائلا فى الحوافز التى تدفع الشباب إلى الفضائل التى ينشدها. «حيث ان مفتاح الفضيلة هو التربية والتعليم للنشئ » (١٨) فالمحبة الأخوية لاتستقيم مالم تستند إلى الود بين الأباء والأمهات، والقدرة دون النصيحة هى التى يتمثلها الأبناء عن آبائهم والتلاميذ عن معلميهم. واذا وجد الأبناء الانصاف والعدل والمساواة بينهم وبين بعضهم من آبائهم، شبوا على المحبة والود وكانوا لبعضهم عونا على الغير وردا لنوازل الزمن. مما يثبت قدم العائلة ويرسخ أساسها ويكون لها صورة وجود قوى.. بخلاف ماإذا أبغض الأخوة بعضهم بعضا. ووقع بينهم التحاسد والمشاحنة. وصار أمر كل منهم موكولا

على حدته لقوة نفسه، ولاناصر له ولامعين من أخوته، فانه بهذه المثابة يصيرعرضه لجميع مكاره العزلة والانفراد، والضعف الشخصى المترتب على عدم الاتحاد [١٩]. ولقد كان تعليم البنات فى نظر الطهطاوى مهما لثلاثة أسباب:

١ ـ خلق الزيجات المتناسبة.

٢ ـ تنشئة الأطفال تنشئة جيدة صالحة.

٣ ـ أن تعمل النساء كما يعمل الرجال فى حدود طاقاتهن [٢٠] وأن يبعدن عن فراغ الحياة والثرثرة التى لاطائل من ورائها.

ولقد قسم الطهطاوى مراحل التربية العمومية إلى ثلاث مراحل: التعليم الأولى الابتدائى، والتعليم الثانوى التجهيزى، والتعليم الكامل الانتهائى (العالى).

أولا: التعليم الأولى:

فهو المرحلة الأولى من مراحل التعليم «ويكون فيه أهل المملكة على حد سواء، فهو عام لجميع الناس يشترك بالاشتغال فيه والانتفاع به أبناء الأغنياء والفقراء ذكورهم واناثهم» [٢١] فالتعليم الأولى لايقتصر على جنس بعينه أو طبقة بعينها، بل هو الأساس العام لكل مراحل التعليم والتدريبات التالية. وبذلك يعد التعليم الابتدائى للبنين والبنات أساسا لتكوين الفرد بغض النظر عن مستقبله الوظيفى أو الحرفى علمياً كان أم عملياً رفيعاً أم بسيطاً.

ولقد اهتم الطهطاوى بمحتوى هذا التعليم وحدده على النحو التالى: تعليم القراءة والكتابة والقرآن الشريف وأصول الحساب والنحو والهندسة

(٢٢) وهذه المعارف ضرورية لكل أبناء الأمة. ولكن الطهطاوى أضاف إلى هذه المواد بعض التدريبات الجسدية والمهارات الرياضية للبنين. وهى: السباحة والفروسية وركوب الخيل والرمى واللعب بالرمح والسيف وأشباه ذلك من آلات الحرب ليتمرن على وسائل الدفع عن وطنه والمحاماة عنه. لأن هذه الأشياء من المنافع العمومية ولاينبغى تمرين الأطفال فى زمن الشبوبية عليها (٢٣) ومن هنا يتضح رأى الطهطاوى فى أن يكون التعليم الأولى الابتدائى جامعا للتربية العقلية والتربية الجسدية، وعاما لكل من البنين والبنات بلا تفرقة وكذلك مشاع لكل طبقات المجتمع بلا استثناء. وكل أفراد المجتمع محتاجون اليه. كحاجتهم إلى الخبز والماء حسب تعبيره.

ثانيا: التعليم الثانوى:

فقد رأى أن تقوم الدولة باختيار تلاميذها ممن عندهم استعداد لذلك. فالتعليم الابتدائى ينبغى أن يكون لكل أفراد الأمة من الذكور والاناث، ولكن القدرات الفردية تحدد اتجاه تعليم التلميذ بعد المرحلة الأولية الابتدائية. ومن واجب الدولة ان تتعرف على استعداد كل تلميذ فان كان حسن الفهم صحيح الادراك جيد الحفظ واعيا، فهذا من علامات قبوله للعلوم والفنون وتهيئته لها. (٢٤) فمن عنده هذا الاستعداد فمكانه التعليم الثانوى. أما من لاحظ المربى أن التلميذ بخلاف ذلك من كل وجه علم أنه لم يخلق لذلك. فان رأى عينة طامحة إلى صنعة من الصنائع مستعدا لها، فلابد بعد تعليم المعارف الابتدائية (٢٥) وبذلك جعل الطهطاوى تقسيم التلاميذ بعد المرحلة الابتدائية إلى مجموعتين احداهما للتعليم الثانوى والأخرى للتدريب الحرفى الصناعى، وكلاهما واجب ينبغى أن تقوم به الدولة تجاه الأفراد بأن توجه كل فرد وفق استعداده وقدراته وميوله.

وهنا تختلف فكرة الطهطاوى عن الفكرة التى سادت العصر العثمانى عن التعليم الحرفى، فقد كانت تقوم به الطوائف الحرفية دون تدخل من الدولة أو رعاية منها. وقد حدد الطهطاوى المحتوى الدراسى المنشود للتعليم الثانوى فى رأيه على النحو التالى: العلوم الرياضية بأنواعها، الجغرافيا والتاريخ والمنطق، العلوم والبيولوجية، الطبيعة والكيمياء، الادارة الملكية، فنون الزراعة، الانشاء والمحاضرات، وبعض الألسنة الأجنبية (٢٦).

ثالثا: التعليم العالى:

فى هذ النوع من التعليم يتخصص الدارسون ويتبحرون فى علم مخصوص، كعلم الطب أو الفقه أو الجغرافيا والفلك والتاريخ، ويرى أن يكون عدد التلاميذ فى التعليم العالى محصورا، ولايباح الانتساب إليه الا لصاحب الثروة أو ذى اليسار، بحيث لايضر تفرغه للعلوم العالمية بالمملكة (٢٧) على عكس مايرى من انتشار التعليم الأولى نجده يحدد ويضيق التعليم العالى.

الطهطاوى والتعليم الطبقى:

لقد خرج الطهطاوى من اطار الدائرة والفكرة، التى سادت عند مفكرى عصره فى أوروبا بربط مراحل التعليم بالطبقات الاجتماعية. فلا يرقى إلى التعليم العالى الا أبناء الطبقة العالية أو من هم قريبون من الطبقة العالية. وقد فصل الطهطاوى هذا الرأى الخاطئ فى كتابه «المرشد الأمين» على النحو التالى:

«التعليمات الأولية والمعارف العمومية يجب أن تعم جميع أولاد الأهالى فقيرهم وغنيهم» (٢٨) فالتعليم الابتدائى ينبغى أن يكون فى رأى

الطهطـاوى متـاحـا لكل أبناء الأمة بغض النظر عن كـونهم ذكـوراً أو اناثاً أثرياء أو فقراء. ولكن التعليم الثانوى لايمكن أن يكون بنفس درجة انتشار التعليـم الابتـدائى. ورغم ذلك ينبغى أن تقوم الدولة بجعله متـاحـا لعدد كبيـر ممن أنهوا التعليم الابتدائى ـ كل حسب قدراته واستعدادته ـ وفى هذا المجال يقول الطهطاوى : يجب أن يكون التعليم الثانوى كثيرا ومنتشرا بين أبناء القـابلين له الراغبين فيـه، يبـاح لهـم التـعليم والتـعلم ليكونوا من الدرجة الوسطى.

ويعد رأى الطهطاوى هنا متقدما بالمقارنة مع رأى جان جاك روسو رغم اتفاقهما فى وضع الاستعدادت والميول أساسا للتعليم.

ويرى روسو أن «الفـقـير ليس بحاجة إلى تربيـة، فظروف طبقته تفرض عليه تربيته فرضا ولن يتيسر له سواها، فالتربية الطبقية ينبغى أن تعد الرجل كى يكون لائقـا للحيـاة فى جمـيع الظروف البشرية. فلا يسـتـقيـم أن نربى الفـقـيـر تربيـة من سيـعيش فى الثراء، ولايستـقـيـم أن نربى الثرى تربيـة من سيعيش فى الفاقة» (٢٩) والفرق بين رأى روسو والطهطاوى واضح، حيث أن الطهطاوى يرى على عكس روسـو ضـرورة التـعليم الأولى لكل المواطنين والثانوى لكل من عنده استعداد وميل لذلك بغض النظر عن انتمائه الطبقى. والتعليم العالى ينبغى أن يكون مقصورا على أبناء الصفوة الاجتماعية التى أتيح لهـا من الثروة مـايمكنهـا من ذلك ـ وحتى لايؤثر ذلك على التـعليم الحرفى لأصحاب الحرف ـ وعبارة الطهطاوى: «درجة العلوم العالية المعدة لأرباب السياسات والرئاسات وأهمل الحل والعقد فى المماليك والحكومات، فانه ينبغى أن يقتصد فى تعليمهـا والتضييق فى نطاقهـا بحيث يكون عدد تلامـذتهـا محصـورا، وعلى أناس قلائل، مقـصـور بمعنى أن كل من طلب

الاشتغال بالعلوم العالية لابد من أن يكون صاحب ثروة ويسار، ويكون يساره مقيدا بقيود خاصة فى الغنى والاعتبار. بحيث لايضر تفرغه للعلوم بالمملكة. فمن الخطر على من له صناعة يتعيش منها، وينتفع به الناس أن يترك هذه الصناعة ليدخل فى دائرة معالى المعارف التى لاتصلح أن تكون له بضاعة. فلا ينبغى أن يرخص للتلامذة المتعلمين العلوم الأولية والثانوية أن ينتظموا فى مسلك أرباب المعارف القصوى اذا كانت فى حقهم قليلة الجدوى (٣٠).

واذا كنا قد قلنا: أن موقف الطهطاوى من علوم الدراسات العليا والمعارف القصوى - بتعبيره - من ضرورة قصرها على أبناء الأغنياء قد كان ثمرة لفكر عصره الاجتماعى، ولفكره البورجوازى الوطنى، فأننا يجب أن ننصف الرجل فنقول: أننا بعد قرن ونصف من ريادة الطهطاوى وقيادته لحركة البعث والاحياء العربية لانزال دون تحقيق الآمال والأهداف التى حددها الرجل فى مجال التربية والتعليم.. فلا زلنا بعيدين عن أن يكون التعليم الابتدائى - ويقابله الاعدادى اليوم - شائعا وعاما شيوع «الخبز والماء» ولازلنا بعيدين عن انتشار التعليم الثانوى الانتشار الذى أراده له الطهطاوى كى يكون وسيلة «تموين» لجمهور الأمة وكسبها درجة الترقى فى الحضارة والعمران. وقد يكون الطهطاوى قد تأثر فى هذه الجزئية فى فكره التربوى بالاتجاهات والتيارات التى نتجت عن مخلفات المجتمعات الاقطاعية، والتى قامت الثورة الفرنسية لكى تقوضها.

٣ - ضرورة التربية الدينية:

يقوم اقتناع الطهطاوى بأهمية التربية الدينية على تكوينه الثقافى

والدينى فى مصر، أثناء دراسته وتدريسه بالأزهر، كما يقوم أيضا على صلته بمؤلفات الكتاب الفرنسيين الذين أكدوا ضرورة الاهتمام بالجانب الدينى فى التربية. ومن هؤلاء الكتاب الكاتب الفرنسى «فينسلون Fene-lon» الذى جعل من أهم واجبات تعليم البنات العناية بالجانب الدينى. وترجع أهمية التربية الدينية إلى أنها تشكل المنطلق السلوكى والأسلوب الصحيح للانسان المتحضر. حيث رفض الطهطاوى الرأى القائل بتكوين السلوك الفردى اعتمادا على معايير اخلاقية عامة دون نظر فى الدين، فالنظر العقلى لايصح - فى رأى الطهطاوى - فى تلك الأمور التى قررها الدين فالدين قد وضع المعايير الضرورية للسلوك ومن ثم يعتمد عليه فيها. وفى هذا يقول الطهطاوى: «كل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لاتثمر العافية الحسنى. فلا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا اليها تحسينا وتقبيحا (بالنظر العقلى المجرد) وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود. فينبغى تعليم النفوس السياسية (السلوك والواجبات) بطريق الشرع لا بطريق العقول المجردة. ومعلوم أن الشرع الشريف لايحظر جلب المنافع ولادرء المفاسد ولاينافى المجددات المستحسنة التى يخترعها من منحهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة» [٣١].

ونستنبط من هذا النص أن الطهطاوى يؤكد على أهمية التثقيف الدينى لسلوك الفرد وأنه لايمكن الاستغناء عنه بالنظر العقلى المجرد أو بالفكر الفلسفى أو الأخلاقى فى الأمور التى حددها الدين وباب التجديد مفتوح بعد ذلك فى باقى الأمور أمام البشر. ولقد شرح الطهطاوى فى مواضع مختلفة من «المرشد الأمين» أسباب اقتناعه بأهمية التربية الدنية. وأوضح بعبارات كثيرة أهمية الدين فى بناء الحضارة، وأن الاسلام أتى بمجموعة

من الأصول والأحكام اتاحت الازدهار الحضارى. وفى هذا يقول الطهطاوى: «لاشك أن رسالة الرسل بالشرائع هى أصل التمدن الحقيقى الذى يعتد به ويلتفت اليه وان الذى جاء به الاسلام من الأصول أو الأحكام هو الذى مدن بلاد الدنيا على الاطلاق» (٣٢). هذا بالاضافة إلى أن الطهطاوى غير مقتنع بكثير مما ينسب فى عصره إلى الاسلام لأن المسلمين قد اعتادوا عليه.

ولقد حاول الطهطاوى أن يعود بالمسلمين إلى المصادر الأولى للاسلام وهى الكتاب والسنة وآراء المفكرين وأن يوضح لهم فى الوقت نفسه العوامل التى حالت دون الفهم الصحيح للدين. ولكنه مقتنع بعدم اعتبار مادرج المسلمون عليه بالتقليد والمحاكاة امورا اسلامية بالضرورة، فاجتهاد المسلم له ضوابطه المعروفة ومصادر الفكر الاسلامى معروفة أيضا، أما التقليد والوقوف أمام أى تغيير أو تطوير أو تعديل فهما من قبيل العرف لا الدين.

وارتكانا إلى هذا الفهم السابق لفكر الطهطاوى الدينى. يتضح لنا أنه يرى أن يعلم الطفل، ذكرا كان أم أنثى. من بواكير الطفولة العقائد الدينية الدالة على وجود الله ووحدانيته. ويرى أيضا أن تسير التربية الدينية جنبا إلى جنب مع تربية الطفل المعاشية (٣٣) ولاينصح رفاعة الطهطاوى بتوبيخ الطفل اذا خالف أصول الأدب فى بعض الأوقات، بل لايكاشف بأنه أقدم عليه، هذا فى المرة الأولى، وفى المرة الثانية يوبخ الطفل سرا وعلانية، لأنه اذا تعود التوبيخ والمكاشفة فيه، أدى ذلك إلى أن يكون وقحا، ويهون عليه سماع الملامة فى ركوب القبائح والرذائل غير المطلوبة أو المرغوبة فى تربية الطفل منذ نعومة أظافره. وبهذه الطريقة المثلى فى التربية ناشد الطهطاوى الآباء والأمهات تربية أطفالهم ومعاملتهم كما حثهم على ضرورة التربية الدينية السليمة.

٤ ـ أهمية التربية السياسية:

تعد التربية السياسية للمواطنين فى الدولة الحديثة ركنا أساسيا من أركان التعليم، ولذا أكد الطهطاوى ضرورة وجود وعى سياسى عند الأفراد فى الدولة الحديثة، فاذا كان الحكم يقوم على القوانين المعلنة فلابد من التثقيف السياسى حتى يدرك كل مواطن حقوقه التامة له والواجبات التى تطلبها منه الدولة. ولهذا لم تعد التربية السياسية مقصورة على الفئة أو الطبقة الحاكمة، بل أصحبت ضرورة لكل المواطنين. وفى هذا يقول الطهطاوى: «كانت المنافع لتعليم البوليتيقة والسياسة فى الأزمان السابقة ماتشبث به رؤساء الحكومات من قولهم أن السياسة من أسرار الحكومة الملكية لاينبغى علمها الا لرؤساء الدولة ونظار الدواوين» (٣٤) ولكن الطهطاوى مقتنع بأن هذا قد تغير فى الدولة الحديثة تغيرا أساسيا، فالسيادة للقانون، والقانون معلن، وفى هذا ضمان لوضوح العلاقات بين الحاكم والمحكوم.

ويؤكد الطهطاوى أن الشعب أحد أركان الدولة، ومن ثم كان له الحق فى معرفة حقوقه وواجباته وفى هذا يقول الطهطاوى: «من البديهى أن للانسان حقوقا وعليه واجبات، فطلبة لحقوقه وتأديته لواجباته على الوجه الأكمل يقتضيان معرفة الحقوق والواجبات. ومعرفتهما متوقفة على فهمهما. وفهمهما عبارة عن قوانين الحكومة التى هى السياسة» (٣٥). وبذلك تهدف التربية السياسية إلى تكوين الوعى بالمواطنة وماتفرضه على المواطن من سلوك اجتماعى هادف إلى الصالح العام ان فكرة الصالح العام لايمكن ان تتضح فى رأى الطهطاوى الا فى اطار التربية السياسية. فالتثقيف السياسى له تأثير معنوى فى تهذيب الأخلاق، ومنه تفهم الأهالى أن مصالحها الخصوصية والشخصية لاتتم ولاتتمركز الا بتحقيق المصلحة

العمومية التى هى مصلحة الحكومة، وهى مصلحة الوطن. فتذعن نفوسهم بأن الفوائد الخصوصية ليست فى حد ذاتها مضمونة الحصول الا فى ضمن الفوائد العمومية المذكورة (٣٦) وبهذا أوضح الطهطاوى أن صالح الدولة ليس مجرد مجموع مصالح الأفراد، ولكن هناك مصلحة عامة لها وجودها المتميز إلى جانب المصالح الفردية الخاصة.

وارتكانا إلى ماسبق عرضه لمفهوم التربية السياسية لدى الطهطاوى يتجلى أمامنـا ان اهتمام الطهطاوى كان مركزا على التغلب على التخلف الحضـارى والظلم الحضارى، وكان عليه أن يجعل التربية السياسية خاصة بتربية الفرد لكى يكون عضوا فعالا فى مجتمع الحضارة الحديث (٣٧). وليكون المواطن واعيا بحقوقه المدنية وواجباته التى يفرضها عليه الصالح العام فى الدولة التى ينتمى إليها. ويتمتع بامكانياتها المادية ويحقق فيها ذاته، وبذلك يستطيع أن يسهم فى تقدم وتطور المجتمع الذى يعيش فيه

الوطنية فى فكر الطهطاوى:

يرجع اهتمام الطهطاوى بفكرة الوطن والوطنية، لمشاهدته بعينه الثورة الفرنسية التى قام بها الشعب الفرنسى فى عام ١٨٣٠، وكيف ضحى الفرنسيون بأرواحهم فى سبيل وطنهم. وفى الواقع كان الطهطاوى هو أول من كتب – نثرا وشعرا – فى معنى الوطن والوطنية، فقد كتب وهو فى باريس بيتا من الشعر يقول فيه:

لئن طلقت باريسا ثلاثا فما هذا لغير وصال مصر

ويعتبر كتاب الطهطاوى «مقدمة وطنية مصرية» هو أول كتاب من نوعه فى مصر فى الوطنية المصرية. فيقول فيه: «حب الوطن من الإيمان. ومن

طبـع الأحـرار احـراز الحنين إلى الأوطان. ومـولد الانســان على الدوام محبوب ومنشؤه مألوف له ومرغوب ولأرضك حرمة وطنها، كما لوالدتك حق لبنها، والكريم لايجفو أرضا بها قوابله ولاينسى دارا بها قبائله»(٣٨).
ويناشد المربين فى كتابه «المرشد الأمين» أن يغرسوا الوطنية فى نفوس طلابهم لأن الوطن هوعش الانسان الذى فيه درج ومنه خرج ومجتمع اسرته ومقطع سرته وهو البلد الذى نشأته تربته وغذاءه هواؤه ورباه نسيمه وحلت عنه التمائم فيه (٣٩) وبذلك يحتل الوطن والوطنية مكانة عظمى فى تفكير الطهطاوى وهى ليست فكرة هلامية، بل هى محددة المعالم والوجوه وتستوجب ضرورة توعية الطلاب بها منذ نعومة أظافرهم فى المدارس حتى يعوا وطنهم. وكذا يتربى لديهم وعى سياسى شامل بالوطن ككل.

والعلاقة بين الوطن والوطنية عند الطهطاوى علاقة شبه تعاقدية.. فالمواطن لايؤدى حقوق الوطن عليه الا اذا حصل على حقوقه من الوطن وأولها حريته وارتباط المواطنة بحرية المواطن عند الطهطاوى من أعظم المزايا عند الأمم المتمدنة. فقد كانت أغلب الأمم محرومة من تلك الميزة يوم ان كانت أزمات فيها أوامر ولاة الأمور جارية على هوى أنفسهم يفعلون ماشاءوا فى الأهالى. فالطهطاوى أذن ينعى على المواطن غير المتمتع بحريته حق المواطنة وفى الوقت نفسه لايعترف بالوطن الا اذا كان مواطنوه أحرارا. وهو هنا متأثر بروسو الذى اعتبر المواطنة مجموعة الحقوق والواجبات البيعية بدونها لايقوم المجتمع السياسى المنظم (٤٠) فمفهوم المواطنة عند روسو يقوم على دعامتين رئيسيتين:

١ ـ المشاركة الايجابية من جانب الفرد فى عملية ا لحكم.

٢ ـ المساواة الكاملة بين أبناء المجتمع الواحد كلهم.

ولقد أكد روسو أهمية هذا المبدأ إلى حد أنه ذهب إلى أنه مجرد أن ينصرف الناس عن الاهتمام الايجابى بشئون الدولة أو إذا حيل بينهم وبين هذه المشاركة الايجابية. يكون الوقت قد حان لاعتبار الدولة فى حكم المفقودة.

ومن خلال ذلك كله، نجد أن الطهطاوى اهتم بالتربية السياسية، اهتماما بالغا، حيث تكون قادرة على تشكيل الوعى السياسى لدى المواطن. والوعى السياسى هو الوحيد القادر على أن يتفهم المواطن ماعليه وما له تجاه دولته التى يعيش فى كنفها، وكذلك نجد مدى تأثير فلسفة التنوير عليه فى هذه النقطة بالذات، حيث تأثر بكتابات روسو وخصوصا كتاب «العقد الاجتماعى» ومن هنا فان فلسفة التنوير كانت لها بذورها فى فكر الطهطاوى، حيث تأثر بها أثناء اقامته فى باريس، وكذا اطلاعه على كتب فلاسفتها واعلامها، ويعتبر الطهطاوى رائدا حقيقاً لهذه الفلسفة فى مصر فى القرن التاسع عشر [٤١] حيث أخذ بيد الأمة المصرية فأخرجها من ظلمات العصور الوسطى إلى رحاب عصر التنوير.

٥ ـ تحرير المرأة ضرورة عصرية:

مما لاجدال فيه أن الطهطاوى هو الرائد الحقيقى لحركة تحرير المرأة، التى وهبها قاسم أمين نفسه، وقد لانجد فى دعوته أكثر مما دعا إليه الطهطاوى، غير أن ماواجهه قاسم أمين كان غير ماواجهه الطهطاوى، فلم يكن الرأى العام القارئ أيام الطهطاوى قد تكون بعد ليتابع

مايكتبه وكان أكثر مايكتبه للمدارس أو لقلة من القارئين ممن تضمهم دواوين الحكومة، وكانت الدولة هى التى تشرف وتسيطر على وسائل النشر، وحين بدأ الرأى العام القارئ يتكون فى عصر اسماعيل وقامت الصحف ودور النشر الأهلية، لم يكن لدعوته من التفرد ماكان لدعوة قاسم أمين [٤٢] بل كانت جزءا من دعوته الاصلاحية. فلم تلق من الانتباه مالقيته دعوة قاسم أمين التى انفرد بها وتفردت به، وحظيت من انتباه الرأى العام واهتمامه مالم تحظ به دعوة الطهطاوى لتحرير المرأة من تقاليد الماضى العتيقة وان لم يرد فيما كتب عبارة حرية المرأة أو تحريرها، ولكن الذى ورد هو ضرورة تعليم المرأة، وخروجها إلى مجال العمل، وهذا يتضمن فى حد ذاته تحرير المرأة من قيود المجتمع بحبسها فى المنزل.

وبذلك يعتبر الطهطاوى ـ بحق ـ أول داعية لتعليم المرأة فى مصر الحديثة ـ بل فى الشرق كله ـ فقد اقترحت لجنة تنظيم التعليم فى مصر عام ١٨٣٦ العمل على تعليم المرأة. وقد كان الطهطاوى عضوا فيها، غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ لأن المجتمع المصرى لم يكن على استعداد وقتذاك لقبول هذه الفكرة [٤٣]. الا أنها لاقت تقديرا واعجابا من الطبقات العالية، فأخذت العائلات الكبيرة تعلم بناتها فى البيوت على يد أساتذة من معلمين ومعلمات فظهرت طبقة من سلالة البيوت الكبيرة ـ الطبقة الاستقراطية ـ نالت حظا وافرا من العلم والثقافة [٤٤] ومن هذه الطبقة نبغت الكاتبة الشاعرة «عائشة هانم تيمور» كريمة اسماعيل باشا تيمور من كبار الحكام فى عصر عباس وسعيد واسماعيل، وبقيت فكرة تعليم المرأة (البنات) قاصرة على البيوت إلى أن نشئت أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر عام ١٨٧٣م، وأنشأتها «جشم آفت هانم» ولكن قبل

انشاء المدرسة بسنة واحدة، أخرج الطهطاوى كتابه «المرشد الأمين» وفيه يدعو للفكرة ويمهد لظهورها بين أفراد المجتمع المصرى حينذاك.

وبمقارنة فكرة الطهطاوى عن تحرير المرأة وتعليمها. بفكرة روسو فى هذه الناحية نجد أن الطهطاوى أكثر استنارة وتقدم، حيث نادى روسو بضرورة أن تكون الزوجة لزوجها تسعده وتدبر له شئون منزله، ولاتتعلم أى تعليم أو علم من العلوم حيث أن عقليتها غير قادرة على فهم الفلسفة والمنطق والتاريخ.. إلخ وتتعلم فقط فنون التطريز والحياكة، ومن هنا فان رأى روسو فى تعليم المرأة وبالتالى تحريرها فى ضوء أراء الطهطاوى فى ذلك المجال تعد سلفية ورجعية، لأن الطهطاوى اهتم بضرورة تعليم المرأة حيث أن تعليمها يجلب المنافع لها ولزوجها ولمجتمعها ومن هذه المنافع [٤٥].

١ ـ لتعليم المرأة أثر قوى فى اسعاد بيت الزوجية وحسن معاشرة الأزواج.

٢ ـ أن آداب الفتاة ومعارفها تؤثر كثيرا فى أخلاق أولادها.

٣ ـ أن العلم يهيء للمرأة سبيل العمل، إذا دفعها الحال إلى ذلك، وهذا من شأنه أن يشغلها عن البطالة، فان فراغ يدها من العمل، يشغل لسانها بالأباطيل وقلبها بالأهواء.

٤ ـ ان التجربة قد قضت فى كثير من البلاد الأوروبية أن نفع تعليم البنت أكثر ضرورة، بل أنه لاضرر فيه أصلا

٥ ـ لقد روى فى زمن رسول الله من يعلم القراءة والكتابة من النساء للنساء [٤٦].

ولقد تعهد الطهطاوى تلك البذرة بالرى والسقيا فربت على يده وأثمرت

حركة التجديد التى استقام عليها الفكر المصرى الحديث من بعد وامتدت لتشمل كل جوانب الحياة فى مصر على يد الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين ولطفى السيد وطلعت حرب وطه حسين.. إلخ فما من حركة من حركات هؤلاء المصلحين على اختلاف مابينها من اتجاهات الا وهى صدى، أعمق مايكون الصدى، لجانب من الجوانب العديدة فى فكر الطهطاوى، ودعوته للارتقاء والتمدن.

ويلخص الطهطاوى مهام العملية التربوية، ودورها فيقول: «ان الأمة التى تتقدم فيها التربية، بحسب مقتضيات أحوالها، يتقدم فيها أيضا التقدم والتمدن، على وجه تكون به أهلا للحصول على حريتها، بخلاف الأمة القاصرة التربية، فان تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها، فان التربية العمومية هى الحصول على تحسين عوائد الجميعة التأنسية، ومعرفة آدابها علما وعملا، والتأدب بآداب البلاد، فالتربية هى أساس الانتفاع بأبناء الوطن..» (٤٧) وهكذا اكتملت للطهطاوى نظرة شاملة ونظرية عامة فى التربية والتعليم. قدمها وتحدث عنها وصاغ عناصرها فى آثاره الفكرية. وكما كانت له المواقف الرائدة عندما نظر فى الحضارة الأوروبية الحديثة.. ويبشر بالفكر الليبرالى.. ونقد بشاعة الاستغلال الاقطاعى، ودعا إلى أن تدخل البلاد طريق التطور البرجوازى: اقتصاديا وفكريا ـ وكان ذلك الموقف الثورى والطور المتقدم فى عصره ـ كذلك فقد كانت له نظرة جديدة وعصرية ومتقدمة ومستنيرة على ميدان التربية والتعليم.

المصادر والهوامش

١ - جرجي زيدان، **بناة النهضة العربية**، (كتاب الهلال، العدد ٧٢، القاهرة ١٩٥٧)، ص ١١٣.

٢ - عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ص ٤٩٨.

٣ - حسين فوزي النجار، **رفاعة الطهطاوي** (أعلام العرب العدد٥٣، القاهرة، الدار القومية، د.ت)، ص ص ٥٥ - ٥٦.

٤ - رفاعة الطهطاوي، **تخليص الابريز في تلخيص باريز**، (القاهرة، مطبعة الحلبي، ١٩٠٥)، ص ١٦٠.

5- Albert, Hourani, **Arabic Thought in The Liberal Age**, (Oxford University Press London, 1970), p. 69.

٦ - محمود فهمي حجازي، **أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي**، (القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٤)، ص ٩.

٧ - حسين فوزي النجار: رفاعة الطهطاوي، ص ١٥٣.

٨ - جمال الدين الشيال، **رفاعة رافع الطهطاوي**، (نوابغ الفكر العربي، العدد ٢٤، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠) ص٢٣.

٩ - Albert, Hourani. Op. Cit, pp. 69 - 70.

١٠ - لويس عوض، **تاريخ الفكر المصري الحديث**، جـ ٢، (القاهرة، دار الهلال، ١٩٦٩)، ص ص ١٠٦ - ١٠٧.

١١ - رفاعة رافع الطهطاوي، تخليص الابريز في تلخيص باريز، ص ٣٣٦.

١٢ ـ المرجع السابق، ص ٣٣٦.

١٣ ـ حسين فوزى النجار، رفاعة الطهطاوى، ص ١٦٧.

١٤ ـ رفاعة رافع الطهطاوى، **المرشد الأمين للبنات والبنين**، (القاهرة، مطبعة المدراس الملكية، ١٢٨٩ هـ)، ص٥.

١٥ ـ رفاعة الطهطاوى، المرشد الأمين، ص ٢٢.

١٦ ـ المرجع السابق، ص ٣٣.

١٧ ـ المرجع السابق، ص ٣٤.

18- Albert Hourani, Op. Cit., p. 77.

١٩ ـ رفاعة الطهطاوى، المرشد الأمين، ص ٣٧٨.

20- Albert Hourani, Op. Cit., p. 77

٢١ ـ رفاعة الطهطاوى، المرشد الأمين، ص ٦٢.

٢٢ ـ المرجع السابق، ص ٦٢.

٢٣ ـ رفاعة الطهطاوى، **مناهج الألباب فى مباهج الأداب العصرية**، (القاهرة، مطبعة الرغائب، ١٩٢١)، ص ٤٥.

٢٤ ـ المرجع السابق، ص ص ٤٤ ـ ٤٥.

٢٥ ـ المرجع السابق، ص ص ٤٤ ـ ٤٥.

٢٦ ـ رفاعة الطهطاوى، المرشد الأمين ، ص ٢٨.

٢٧ ـ أحمد أحمد بدوى، **رفاعة الطهطاوى**، (القاهرة، لجنة البيان العربى، د.ت)، ص ٣٠٩.

٢٨ ـ رفاعة الطهطاوى، المرشد الأمين، ص ٦٤ .

٢٩ ـ جان جاك روسو، اميل ترجمة: عادل زعيتر ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

٣٠ ـ رفاعة الطهطاوى، المرشد الأمين، ص ٦٤ .

٣١ ـ المرجع السابق، ص ص ٦١ ـ ٦٢ .

٣٢ ـ المرجع السابق، ص ١٢٤ .

٣٣ ـ أحمد أحمد بدوى، رفاعة الطهطاوى، ص ٣١٥ .

٣٤ ـ رفاعة الطهطاوى، مناهج الألباب، ص ٢٣٤ .

٣٥ ـ المرجع السابق، ص ٢٣٤ .

٣٦ ـ المرجع السابق، ص ٢٣٤ .

٣٧ ـ محمود فهمى حجازى، أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى، مرجع سابق، ص ١١٢ .

٣٨ ـ رفاعة الطهطاوى، **مقدمة وطنية مصرية**، (القاهرة، مطبعة بولاق، ١٢٨٣ هـ – ١٨٦٦ م)، ص ٣ .

٣٩ ـ رفاعة الطهطاوى، المرشد الأمين، ص ٩١ .

٤٠ ـ فاروق أبو زيد، رفاعه الطهطاوى مؤسس الصحافه المصرية، (مجلة الموقف العربى، العدد التاسع، القاهرة، ديسمبر ١٩٧٧)، ص ٨٣ .

٤١ ـ محمد عمارة، **نظرة جديدة للعلم والتربية والتعليم**، (مجلة الكاتب السنة ١٣ العدد ١٤٨، يوليو ١٩٧٣)، ص ٨٢ .

٤٢ ـ حسين فوزى النجار، رفاعة الطهطاوى، ص ١٦٠ .

٤٣ ـ جمال الدين الشيال، رفاعة رافع الطهطاوى، ص ٥١ .

٤٤ ـ عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، ط ٣، ص ٥٢٣ .

45- Albert Hourani, Op. Cit., p. 77.

٤٦ ـ أحمد بدوى، رفاعة الطهطاوى، ص ٣١١ .

٤٧ ـ محمد عمارة، نظرة جديدة للعلم والتربية والتعليم، مرجع سابق، ص٩١ .

الفصل الثانى

على مبارك رائد التعليم الشعبى فى مصر

- حياتــــه
- اسهاماته فى مجال التربية والتعليم
- دوره التنويرى والثقافى
- على مبارك والثورة العربية





علي مبارك باشا

(١٨٢٣ - ١٨٩٣م)



علـى مبـارك

رائـد التعليـم الشعبـى فـــى مصــر

(١٨٢٣ . ١٨٩٣)

أولا: حياته:

رائد التعليم الشعبى والمصلح التربوى الذى دفعته تجربته الواقعية والخبرة القاسية إلى الاصلاح والتجديد، فأصلح فى نظام التعليم مؤمنا بأنه عن طريق التربية لا السياسة يكون التقدم والتطور، بل ان الاصلاح السياسى مالم يرتكز على الاصلاح التعليمى فلا بقاء له ولاقيمة فيه. ولد فى قرية «برنبال» احدى قرى مركز دكرنس بمديرية الدقهلية عام (١٢٣٩ هـ - ١٨٢٣م) واسم والده الشيخ مبارك ابن ابراهيم السروجى [١] تعلم القراءة والكتابة على يد رجل من أهل القرية، وليس فى نشأة على مبارك الأولى حالة غير عادية تجعل منه رجلا يختلف عن معاصريه، ولكن امرأ واحدا يلفت النظر، ذلك هو نفوره من الذل ومجافاة قسوة المعلم، فقيها كان أم كاتبا، ولقد آثر الهجرة والرحيل على احتمال القهر والضرب فى التعليم؟! ولقد كان يتقدم عصره وينبذ معاصريه، فيتطلع إلى أسلوب فى التعلم أرقى من الاسلوب العتيق الذى كان مألوفا فى عصره [٢]. ولقد كان حبه للعلم والتعليم شديدا اذ سعى بكل جهده للالتحاق بالمدارس رغم ارادة والديه. فالطفل الذى يتعلق بدخول المدارس رغم ارادة والديه. ويستهدف لغضبها فى هذا السبيل، لابد ان يكون قد رسخ فى نفسه شغف شديد بالعلم والتعليم.

ولم يتعلم فى مصر ولا فى فرنسا البيداجوجيا ولا السيكولوجيا على

معلم مختص وانما تعلمها من حسن استعداده وصدق نظره، ومن دروس فى التربية الفاسدة تلقاها من الكتاب حين يضرب وفى مدرسة قصر العينى حين يعذب، مدرسة أبى زعبل حين يلقى عليه الدرس فلا يفهم، هذه طبيعة خيرة توحى إليه بالرحمة بالناس والاشفاق عليهم والألم من جهلهم (٣).
ولقد دخل على مبارك مدرسة القصر العينى، ولكنه سرعان ماشعر بخيبة الأمل، فلم يجد المدرسة هى الجنة التى وعد المتقون، وانما هى النار التى يشقى بها المجرمون. وكانت المدارس المدنية أذ ذاك فى أول العهد بها، ولم يستقر أمرها بعد. ولم تنظم شئونها فلم يعجبه علمها، اذ لم يجد هندسة ولا حسابا كما قيل له. وانما كان أكثر الوقت يصرف فى تعليم المشى العسكرى.

ولقد عاش على مبارك فترة شهدت فيها مصر أحداثا سياسية مهمة، فبعد أن أتم تعليمه فى مدرسة المهندسخانة بتفوق بالغ، اختاره سليمان باشا الفرنساوى فى عام ١٨٤٤ فيمن اختارهم لدراسة الفنون الحربية فى مدرسة خاصة أنشأها محمد على بفرنسا وعرفت باسم «المدرسة المصرية الحربية بباريس» وعاد على مبارك من البعثة عام ١٨٥٠ (٤)، فلم يلحق بحكم محمد على ولا بحكم ابراهيم القصير، ولحق بحكم عباس وسعيد واسماعيل وتوفيق. وشغل على مبارك مناصب هامة فكان وزيرا للمعارف والاشغال. وكان على مبارك يؤمن بالتعليم وبأثره فى نهضة الشعوب وارتقاء الأمم. وكان يحث عليه ويعمل على نشره، ويرى أن تحرر المصريين لايتم بدونه، والتحرر كما كان يراه المصريون حينذاك «هو التحرر من الطغيان وسيطرة الأتراك من عصبية الحاكم مايساندهم ويقويهم، فلن يشاركهم المصريون فى التقدم واحتلال مناصب الحكم مالم يشعر الحاكم بحاجته

اليهم» (٥) وبذلك يتضح لنا مدى اهتمام على مبارك بالتعليم، حيث أنه بدونه لايمكن للشعوب أن ترتقى وتتقدم وتزدهر، وتتخلص من الطغيان والظلم وتحرر نفسها من قوتها المتمثلة فى أفرادها المستنيرين المتعلمين، واذا كان الباحث قد عرض لحياة على مبارك ونشأته بهذا الايجاز، فأنه سوف يعرض لاسهامات على مبارك فى مجال التربية والتعليم، حيث أن هذا هو مرادنا من التعرض لهذا الرائد من رواد حركة الاستنارة فى مصر فى القرن التاسع عشر.

ثانيا: اسهامات على مبارك فى مجال التربية والتعليم:

لم يكن على مبارك غريبا على التعليم حين اضطلع بأموره فقد اصدرت الادارة الخديوية مرسوماً بتعيين صاحب العزة المهندس على مبارك بك وكيلا عاما لديوان المدارس لملاحظة المكاتب الأميرية والأهلية الموجودة فى مصر والبنادر فى الأقاليم والاهتمام باصلاحها ونظامها والاعتناء بحسن ادارتها (٦).

فقد قام عليه مرة من قبل فى عهد عباس. ولايمكن القول ان خبرته بالتعليم هى التى حملته وحدها على التقدم بمشروعه لاصلاح التعليم ولكن اهتمامه الحقيقى بنشر التعليم بين أبناء الأمة هو الذى حمله على اقتحام هذا الميدان البعيد عن تخصصه. ولقد عرف على مبارك التربية. كما هدته اليها فطرته بأنها «كتاب الأدب وحسن السلوك» والغرض من التعليم هو «حصول أبناء هذا القطر على مايوجب اصلاح شأنهم وشأن أهاليهم ليفوز الوطن بثمرة التقدم لأبنائه جميعا.. واتساع دائرة المعارف» (٧).

١ ـ لائحة رجب: ١٠ رجب ١٢٨٤ هـ ـ ١٨٦٨م :

لـقـد وجـه عنايتـه منذ تولى وكـالة الوزارة إلى اصـلاح التـعليم فى المكاتب وتحويل مايمكن تحويله من الكتاتيب إلى مدارس ابتدائية نظامية، فوضع لائحتـه المشهـورة بلائحة ١٠ رجب عام ١٢٨٤ هـ، التى نظمت المـدارس، ودعا طائفة من المشتغلين بالتعليم ليراجعوا المشروع ويبحثوه. ويبـدوا آرائـهم فيـه، فـدرسوا اللائحة وأقـروها (٧). وصـدر أمـر الخـديوى باجراء العمل بمقتضاها فى مايو عام ١٨٦٨ ميلادية. ولقد احتوت اللائحة على ثلاثة أقسام رئيسية، يتحدث القسم الأول عن مكاتب المدن الكبيرة، ويتناول القـسم الثـانى مكاتب القرى والضواحى، ويختص القسم الثـالث بالمدارس المركزية.

القسم الأول: مكاتب المدن الكبيرة

ويأخذ من المادة الأولى إلى السادسة والعشرين من اللائحة وهو خاص بمكاتب المدن. ولقد لاحظ على مبارك أن مكاتب القاهرة وحدها حوالى ٢٢٢ مكتبا وان هذه المكاتب اما وقف وتتبع نظارتها الحكومة، واما وقف ولاتتبع الحكومة فى نظارتها. وأما اهلية لا وقف لها (٨). ورسم على مبارك الاصلاحات التى يمكن تطبيقها، كى تصبح جميع المكاتب فى وضع لائق بحالة التعليم وتؤتى ثمارها المرجوة: فقرر الغاء الكتاتيب غير الصالحة للدراسة من الناحية الصحية وكذلك الكتاتيب القديمة التى آلت للسقوط، وقرر تجديد ذلك بما يوفر للتلاميذ الأمان فى تحصيل العلم. كما اهتم بتزويد المكاتب الكبيرة بالمدرسين الذين يدرسون الخط والحساب والصرف والجغرافيا والتاريخ ولغة أجنبية، أما فى المكاتب الصغيرة فيدرس بها العرفاء

والمؤدبون القراءة والكتابة والعد إلى جانب تعليم القرآن الكريم (٩). كما اهتم أيضا بالمكاتب الأهلية غير التابعة للأوقاف فسمح بأن يندب لها من ديوان المدارس من تحتاجه من المدرسين.

القسم الثاني: المكاتب الأهلية

ويأخذ من المادة السابعة والعشرين إلى الثانية والثلاثين من اللائحة وهو خاص بالمكاتب الأهلية وهى التى لاتتبع الأوقاف، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة فانه يكتفى فيها بتعليم المواد التى تدرس فى مكاتب الأوقاف الصغيرة، الا اذا رغب منشئ المكتب فى التوسع فى التعليم على غرار مكاتب الوقف الكبيرة (١٠). وقد كلف على مبارك الأهالى بجملة مصاريف المكاتب التى تنشأ أو توجد فعلا فى قراهم، كما كان عليهم دفع أثمان الكتب والأدوات المدرسية اللازمة للتلاميذ القادرين على شرائها. وبذلك فقد أشرك على مبارك الأهالى لأول مرة فى تحمل نفقات تعليم أبنائهم، ومن هنا استشعر الأهالى ضرورة وأهمية التعليم وأقبلوا عليه، وساهموا فى انشاء العديد من هذه المكاتب والعناية بأمرها.

القسم الثالث: المدارس المركزية

ويأخذ من المادة الثالثة والثلاثين إلى المادة الأربعين، وهو خاص بالمدارس المركزية التى يصير انشاؤها فى مراكز المديريات ولقد رأى على مبارك أن تبنى المدارس على حساب أهل المديرية، اللهم الا اذا وجد بناء حكومى يصلح لأن يكون مدرسة، ففى هذه الحالة يعفى الأهالى من بناء المدرسة، وكذلك يتكفل الأهالى بشراء اثاث المدرسة. أما الأدوات المدرسية ومايتكلفه التلاميذ فى مأكلهم وملبسهم فانها تؤخذ من أموال الأوقاف

الخيـرية. وكـذلك يعين ديوان المدارس المدرسين اللازمين ويتكفل بصـرف مرتباتهم، ولقد حددت اللائحة عدد تلاميذ المدارس المركزية، وجعلته يتراوح مـابين مـائتين وثلاثمـائة تلميـذا، حسب التعـداد العام للمديرية هذا العدد بالمجان فى الأقسـام الداخليـة. وأباح قبـول خمس هذا العدد فى الأقسـام الخارجية بالمصروفات.

وجدير بالذكر والاشادة، أن اللائحة قد حرمت استعمـال القسـوة فى معاملة وتعليم التلاميذ فى هذه المدارس أو فى المكاتب الأهلية الأخرى.. ودعت إلى استعمـال الرأفة والود معهـم وأخذهم باللين أثناء تعليمـهم (١١). ومن ذلك يتضح لنا مدى اهتمـام على مبـارك بالتلاميـذ، ورعايتـه لهم، وحرصه الشـديد على حسن المعاملة فى تعليم الاطفـال، حيث أن منهج الضرب بالسياط لايؤدى إلى النتائج المرجوة من التعليم، وهو منهج تقليدى وعديم الفـائدة، إلى جانب أنه باطل، وكـان لايستعـمل إلا فى الكتاتيب التى نفر منها على مبارك فى طفولته، وكان غير راض على تلك الطريقة فى التعليم حيث تؤدى إلى نفور التلاميذ منه.

*** موقف اللائحة من الكتاتيب:**

لقد أبـقت اللائـحـة للكتـاتيب حياتها البسيطة التى اعتادت عليها منذ نشـأتـهـا ويتـضح ذلك فى احتـفـاظهـا بالقـرآن الكريم أساسا للتربيـة والتعليـم فيهـا. كمـا أقرت اللائحة من التقـاليد والعادات الفرعية فأقرت الحـرية التى يتـمـتع بهـا الأهالى فى ارسـال أبنائـهم إلى الكتـاتيب من عدمه(١٢). ولقـد حـرصت اللائحة أيضـا حـرصـا شـديدا على أن تظل هذه الكتاتيب مؤسسـات أهلية لاتتدخل فيهـا الحكومة الا عند الضـرورة، وذلك

لتظل هذه الكتاتيب محتفظة باستقلالها وثقة الأهالى فيها، ولكى تصبح فى الوقت ذاته فى يد الحكومة على أنها الأداة الشعبية البسيطة الرخيصة لمكافحة الأمية ونشر قسط ضئيل من التعليم الشعبى الذى يحق لكل أفراد المجتمع.

٢ ـ ضرورة اعداد المعلم:

لاشك أن وضع نظام صالح للتعليم يقتضى بالضرورة توفير العدد الكافى من الأساتذة الأكفاء، ولقد كانت عناية على مبارك باعداد المعلمين بعد ماقاساه منهم ورغبة فى تحسين أحوال التعليم عامة كركيزة للنهوض بوطنه. حيث أن المدرسة لاتعتبر أداة للتعليم مالم يعد لها المعلم الصالح. ولن تثمر رسالة المدرسة مالم تتواءم مع البيئة وتصدر عنها فتكون البيئة حافزا للمدرسة على أداء رسالتها وتكون المدرسة للتبشير برسالة المجتمع، فأن علينا أن نعد المجتمع للتكيف مع رسالة المدرسة والنهوض بها، وحتى يتسنى لنا ذلك فعلينا أن نزود المدرسة والمجتمع بمعلمين أكفاء قادرين على حمل رسالة تنوير الشعب وتزويده بالمعارف والعلوم التى تتواءم مع تطور المجتمع وتناسب دور المدرسة فى ذلك.

ولقد جاء فى البند السادس عشر من لائحة رجب: «تعيين المعلمين والمؤدبين يكون بمعرفة ديوان المدارس وتعطى لهم شهادة من الديوان المذكور وهذا يكون باتحاد الديوان مع من يلزم من العلماء وعمد الجهة» جاء فى البند السابع عشر شرط المؤدب أن يكون حسن الأخلاق والصفات وفيه أهلية لتعليم القرآن الشريف كما ينبغى، وأن يكون له معرفة بأمور الدين، وأن يحسن باب العدية من الحساب (١٣). ولم تكن هناك معاهد

خاصة لتخريج المعلمين، فكان الأزهر يمد البلاد بمدرسى اللغة العربية والدين وتمد مدرسة الألسن المدارس بمدرسى اللغات الأجنبية والمواد الأدبية، أما مدرسة المهندسخانة فكانت تقدم مدرسى الرياضة، ولم يكن هؤلاء يعدون ليكونوا مدرسين اللهم الا معرفتهم المادة التى يدرسونها، ولقد استشعر على مبارك خطورة هذه المشكلة حيث كان أهم مايلزم المدارس الاستحصال على معلمين مستعدين للقيام بسائر وظائف التعليم فأمعن النظر فى هذا الأمر المهم (١٤) إذ ذاك فكر على مبارك فى انشاء مدرسة يؤخذ لها من خيرة كلية الأزهر بامتحان، ويختار لها خيرة العلماء من الأزهر وغيره، ويعلم طلبتها العلوم الدينية وشيئا من علوم الدنيا كالرياضة والجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيمياء، فأنشأ «دار العلوم» لتهتم بتخريج مدرس اللغة العربية، وقد اهتم على مبارك باعداد المعلم لكل مرحلة تعليمية حسب متطلباتها فعنى بـ:

أ ـ معلمى المكاتب الكبرى:

رأى على مبارك أن يعين للمكاتب الكبيرة التى تشرف عليها الحكومة مدرسين يأخذون رواتبهم من مال الوقف، على أن يجرى فيها تعليم الخط والحساب مع تطبيقه على التجارة والصرف والتاريخ والجغرافيا ويقاس على ذلك المكاتب الكبيرة التى لاتخضع لاشراف الحكومة.

(ب) معلمى المكاتب الصغيرة:

أما المكاتب الصغيرة سواء كانت خاضعة لاشراف الحكومة أم غير خاضعة لهذا الاشراف يقوم بالتعليم فيها مؤدبون وعرفاء بشرط أن يكونوا قادرين على القيام بهذا التعليم (١٥).

(جـ) معلمى الكتاتيب:

وبالنسبة للكتاتيب، اشترط على مبارك فى فقهائها أو مؤدبيها وعرفائها أن يكونوا مجودين للقرآن الكريم، محسنين للخط، وعلى علم تام بالقواعد الأولية للحساب، ولقد اشترط ذلك فى البند السادس عشر من اللائحة.

(د) معلمى المدارس الأخرى:

أما بالنسبة لمعلمى المدارس الأخرى، فقد كان أمر اعدادهم أصعب من ذلك بمراحل، فلابد أن يكونوا على شئ من حيث التأهيل وأن يكونوا على استعداد للقيام بما يوكل اليهم خير قيام، فكيف يتيسر ذلك والميزانية على ماهى عليه من ضمور! ولم تقف هذه العقبة فى وجه على مبارك كثيرا فقد استطاع أن يذللها ويتغلب عليها فهاهم طلاب السنوات النهائية النجباء يستطيعون أن يقوموا بوظائف مساعدين لمدرسى المدارس إلى جانب دراستهم فيكتسبون خبرة فى التدريس تعينهم على القيام بنجاح فى مهمة التدريس بعد تخرجهم (١٦). ولعل هذا هو المتبع حاليا فى كليات التربية، حيث يقوم طلاب السنوات الثالثة والرابعة بالتدريب العملى فى المدارس.

(هـ) طريقة التدريس:

أما طريقة التدريس فقد لخص مذهبه فيها بقوله: إنها تقوم على اجتلاء المعقول فى صورة المحسوس فيتعاضد الفكر والنظر والعلم والعمل (١٧) لذلك اهتم على مبارك بالوسائل التعليمية المعينة على التدريس. وأوجب على المعلم أن يستعين بالوسائل التى تبسط المعلومات وتقربها إلى أذهان التلاميذ وفى رأيه أن المدرس يجب ألا يعلم التلميذ شيئا الا مقترنا بفائدته فى الحياة العملية والكيفية التى يطبق بها فى الحياة العملية.

٣ ـ التعليم الشعبى وضرورة انتشاره:

من يتأمل فى لائحة رجب، يرى مدى اتساع الأفق الذى كان يتمتع به على مبارك، فلقد بنى مشروعه على أساس دراسة تاريخية موضوعية لألوان التعليم التى كانت قائمة فى مصر وأخصها التعليم الأميرى الذى أنشئ فى عهد محمد على على النسق الأوروبى، ولم يتسع الا لقلة ضئيلة من التلاميذ عاشت فى مدارس بعيدة عن الحياة المصرية (١٨) وإلى جانب هذا التعليم وجد نوع آخر من التعليم ينبت فى جميع أنحاء المدن والقرى، عاش المصريون زمنا طويلا لايعرفون غيره، فاتصل بروح الشعب وأصبح متغلغلا فى صميم حياته اليومية. ولقد كانت هناك ضرورة للاعتراف بالمكاتب والكتاتيب الأهلية فى القاهرة والإسكندرية ومحاولة تحسينها وتطعيمها بالعناصر الصالحة والاشراف عليها وتوجيهها، حتى يمكن الاكتفاء بها مؤقتا فى نشر التعليم الشعبى، ولقد أصبح ذلك من أهم الأهداف التى حاول على مبارك أن ينفذها، لا فى القاهرة والإسكندرية وحدهما، بل فى جميع أنحاء القطر ليكفل للتعليم القومى بنيانا متماسك الأطراف ثابت الدعائم، يسير بأبناء الأمة جميعا نحو الرقى، لافرق بين سكان المدينة وبين سكان القرية.

لقد كان الاهتمام بالتعليم القومى والدعوة له، بل والعمل إلى تحريره من الصبغة العسكرية الحكومية، سمة بارزة فى عهد الخديوى اسماعيل، فقد عمل فى سبيل هذا الغرض أناس كثيرون كان أبرزهم – بلا شك – على مبارك الذى وضع نصب عينيه هدفا يرمى إلى اخراج التعليم من حيزه الصغير فى نطاق المدينة ليتغلغل فى قرى ونجوع البلاد (١٩). وينير السبيل أمام أبنائها، وهذا كان ركنا هاما من أركان اللائحة. ولقد أقام على

مبارك مشروعه على أعمده كثيرة كى يكفل له النجاح فهو لم يعتمد على الحكومة وحدها، ولكنه اتجه إلى بعض أموال الأوقاف الخيرية وكذلك بعض مساعدات الأهالى.

ولو جاز لنا القول أنه حول التعليم من جهة حربية إلى ثقافة شعبية، كان ذلك وصفاً مجملاً صادقاً، حيث رأى على مبارك أن عماد التعليم الشعبى الكتاتيب فى المدن والقرى، وهى فى حالة يرثى لها، فبدأ يصلح هذا الحال ويدخلها تحت الاشراف الحكومى بعد أن كانت الحكومة لاتعنى الا بالمدارس الحربية وما يعادلها (٢٠). فقضى بيديه عليها وارسل من يحصى له كل كتاتيب القطر ويصف حالة كل كتاب من صلاحية بنائه وعدم صلاحيته وكذا عدد تلاميذه وحالة فقيهه وتبعيته للأوقاف وأصدر اللائحة لتنظيم هذا التعليم. جاء كل ذلك والبلاد كانت تتوق إلى اصلاح التعليم وقد طالب به مجلس الشورى وكان هذا الاصلاح يتفق ومارسم الخديوى اسماعيل من رغبة فى تمدين البلاد ولكن كان تقبل على مبارك ان يأخذ الفكرة الخيالية فيحولها كما تعود ذلك فى التصميم الهندسى ويبرزها إلى الوجود ويرعاها بعنايته حتى تكتمل وتؤتى ثمارها للبلاد.

واستنباطا من ذلك الفهم السابق. نجد أن على مبارك قد نادى بأن التربية والتعليم لايستهدفان تخريج طبقة قليلة ممتازة، هى طبقة الحكام. كما كان الأمر قائما من قبل ذلك فى عهد محمد على. ولكن رأى على مبارك أن التربية والتعليم يستهدفان تنوير الشعب وبث الوعى القومى والوطنى بين جميع طوائفه وأفراده ولذلك أوجب أن يكون التعليم عاما بحيث يعم الريف. وهو حق المصريين ـ جميع المصريين ـ حيث يقول: «القصد من

اقتناع المكاتب بالأقاليم هى تمدن الأهالى واتساع دائرة المعارف والعلوم» [٢١] وبذلك اصبح على مبارك رائدا من رواد التنوير فى مصر فى القرن التاسع عشر، كرس حياته لاصلاح التعليم ونشره بين طبقات الشعب المصرى، لكى يخلق جوا من الاستنارة العقلية القادرة على تغيير أحوال البلاد ودفعها نحو التقدم والرقى.

٤ ـ اهتمام على مبارك بتلاميذ المدارس:

لقد خصص على مبارك مكافآت سنوية للمتفوقين من التلاميذ تصرف لهم من ديوان المدارس. وكذلك يحضر المتفوقون حفلات الحكومة أيام الأعياد. واستلزم أيضا أن تطبع الكتب الدراسية بمعرفة ديوان المدارس، وتوزع على التلاميذ بعد سداد أثمانها. وكذلك رتب لكل جهة طبيبا خاصا يمر على المكاتب من آن إلى آخر للاشراف الصحى على التلاميذ [٢٢] ولقد اهتم على مبارك بالأبنية المدرسية حرصا على حياة وأرواح التلاميذ. وركز فى اللائحة على ضرورة معاملة التلاميذ باللين وتحريم الضرب والتعذيب فى التدريس. كما أوصى باستعمال الوسائل التعليمية فى التدريس لتبسيط المواد الدراسية على التلاميذ ومن ذلك كله نلاحظ مدى اهتمام على مبارك بالتلاميذ وحرصه الشديد على أن يحصلوا من المعلومات والمعارف مايمكنهم من تكوين شخصياتهم المستقلة، التى سوف تساعدهم فيما بعد على قيادة الحياة العامة فى مصر، وتغيير أحوالها.

ومن خلال هذا العرض السابق يتضح أن المجهودات التى بذلها على مبارك لكى يطورشكل ومضمون التعليم، ولكى يفصله عن النظام الحربى

الذى كان متبعا أثناء حكم محمد على وكان قاصرا على تخريج ضباط وموظفين يخدمون الحكومة فقط، لقد حاول على مبارك ان يطور هذا التعليم وأن يغير شكله. ولقد استثمر غرور الخديوى اسماعيل وطموحه فى اصلاح التعليم والتوسع فيه وتهيئة وسائل الثقافة لمن ينشدها من الناس وتيسير سبل المعرفة لمن يبتغيها منهم (٢٣) أحسن استثمار فى تطوير التعليم القومى ونشر التعليم الشعبى وجعله سندا لما يليه من مراحل التعليم إلى جانب اعتباره ركنا هاما فى محو أمية البلاد والمساعدة على تنوير الشعب وبث روح الاستنارة فيه.

ثالثا: دور على مبارك فى تنوير العقول ونشر الثقافة:

لقد أمضى على مبارك رحلة عمره، ينظر فى صفحات التاريخ، ومأثورات القدماء وعقائد العامة بعقل المثقف المصرى المستنير، فيرفض الخرافة، ويفسر الألغاز ويفك الأحاجى، ويشيع لدى القارئ قدرا كبيرا من الحقائق العلمية التى تصنع مناخا فكريا يزكى الحقيقة، ويعلى من مقام العقل، ويؤكد سلطانه القوى والعادل فى مختلف الميادين – وهنا يتأثر على مبارك بفلسفة التنوير – حيث أنه أكد قيمة العقل وضرورة أعماله فى حياتنا. ولقد كان على مبارك رجلا عقلانياً مستنيرا نبت فى تربة حضارةعريقة، ثم تأمل فى شوق وشموخ حضارة أوروبا الزاهرة المزدهرة فكان عطاؤه غنيا وعظيما فى كثير من نواحى الفكر والتطبيق (٢٤)من أجل أن ينير العقول وينشر الثقافة، ولقد كان للرجل مجهودات جليلة فى هذا المجال نذكر منها مايلى:

١ – روضة المدارس: (١٨٧٠):

كان من أجلّ أعمال على مبارك فى الميدان الثقافى، أنشأوه مجلة «روضة المدارس» حين كان مديرا لديوان المدارس عام ١٨٧٠، ومما لاشك فيه أن هذه المجلة ساعدت وقتئذ على نشر العلوم والمعارف وساعدت على تربية ملكة المطالعة عند الطلاب، بل ساعدتهم على التمرن فى كتابة الأبحاث العلمية عندما فتحت صحائفها للنابهين منهم لنشر أبحاثهم القيمة. ولقد كانت المجلة تصدر كل اسبوعين وصدر عددها الأول فى ١٥ محرم ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م [٢٥] واستمرت فى الصدور ثمانى سنوات. ولم تقف جهود على مبارك فى ميدان الثقافة العامة عند هذا الحد، بل فكر فى قيادة حملة على محو الأمية ومحوها من مصر.

ومما لاشك فيه أن نشر التعليم والثقافة كان بغية على مبارك ـ كما يبدو من كل أعماله ـ فلقد كان هو نفسه ثمرة من ثمار التعليم يعرف تماما اننا قد ربينا فى هذا الوجود حتى صرنا على حالة من أحوال الكمال وصلنا اليها، ولم نكن نشأنا عليها فترتب علينا أن نربى غيرنا حتى يصلوا إلى نحو ذلك [٢٦] فلم يترك وسيلة لنشره الا قام بها، فاذا كانت المحاضرة وسيلة اوسع انتشارا، اهتم بها. ولقد رأى على مبارك أن يعهد برئاسة «مجلة روضة المدارس» إلى رفاعة الطهطاوى فرفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس وهو المشار اليه بين أرباب المعارف بالبنان والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل انسان [٢٧] وكان الهدف منها الى جانب نشر الثقافة النهوض باللغة العربية واحياء الأدب العربى، ولقد كانت المجلة طوال فترة امتدت إلى ثمانى سنوات مجمعا للفكر والعلم والأدب والفن تلمع على صفحاتها أقلام الأعلام

فى ذلك العصر الذى بدأ يفور بشتى الاتجاهات ويورى بالحركة وينفعل بالتغيير والتجديد، وبث روح الاستنارة بين عقول المصريين فى ذلك الوقت.

٢ ـ دار الكتب: (١٨٧٠):

ومن مآثره أيضا انشاؤه دار الكتب، فقد كان ينشر التعليم للتعليم لينتفع الناس على حد قوله. بل يتعدى ذلك إلى تيسير وسائل المعرفة والثقافة للراغبين فيها فليس هناك ماهو: أنفع له ـ أى الوطن ـ وأجلب الخير والبركة اليه من تعليم أبنائه وبث المعارف والفنون النافعة فيهم، حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا يدا واحدة فى نفعته وخدمته وايصاله إلى غاية مايمكن ان يصل اليه من الغبطة والسعادة والرفعة وعلو المكانة وبذلك تزداد خبراته وبركاته عليهم وعلى نسلهم ولقبهم وخلفهم من بعدهم، وهذا لايكون الا بالعلم والمعرفة وحسن التربية، فان الجاهل لايحسن نفع نفسه فضلا عن نفع غيره، لأنه لايميز بين المنفعة والمضرة ولو عرف المنفعة لايعرف الطرق الموصلة اليها [٢٨] ويرد الرافعى انشاء دار الكتب إلى عهد محمد على، فقد أنشأ مستودعا لبيع مطبوعات الحكومة فى بيت المال القديم، خلف المسجد الحسينى، ولما ولى اسماعيل الحكم اضاف إليها نحو الفى مجلد من المخطوطات العربية والفارسية ابتاعها من تركة «حسن باشا المناسترلى»[٢٩] ليزدادوا ثقافة ومعرفة بالعلوم والآداب.

ولقد كانت الكتب قبل ذلك متفرقة فى المساجد أو الأماكن المهجورة عرضة للسرقة والنهب والتلف فجمعها فى مكان واحد ورتبها وسهل الاستفادة منها وجعل لها قاعة للمطالعة [٣٠] ويذكر على مبارك فى الخطط

التوفيقية فكرة انشاء دار الكتب فيقول: «ثم ظهر لى أن أجعل كتبخانة خديوية، داخل الديار المصرية، أضاهى بها كتبخانة باريس، فاستأذنت الخديو اسماعيل فى ذلك، فأذن لى فشرعت فى بناء الكتبخانة هناك أيضا (بدرب الجماميز) وبعد فراغها جمعت فيها ماتشتت من الكتب التى كانت بجهات الأوقاف، زيادة على ماصارمشتراه من الكتب العربية والافرنجية وغيرها، وجعلت لها ناظرا ورتبت لها خدمة ومعاونين [٣١] ولقد أنفق على الدار من ميزانية المدارس، وفتحت أبوابها لطلاب العلوم والمعارف وسهلت لهم الاطلاع على كتب ومؤلفات ومخطوطات ماكان يمكنهم الوصول اليها لولا انشاء هذه الدار فأدت ولاتزال تؤدى خدمات جليلة للنهضة العلمية والأدبية للبلاد.

٣ ـ قاعة المحاضرات:

أنشأ على مبارك قاعة عامة للمحاضرات بسراى ضرب الجماميز، يحضرها كل من شاء، ويحاضر فيها كبار الأساتذة من مصريين وأجانب، فكان يحاضر فيها الشيخ «حسين المرصفى» فى الأدب واسماعيل بك الفلكى فى الفلك، ومنصور أحمد فى الطبيعيات، ومسيو بروكسن فى التاريخ العام، وفرانس بك فى المبانى، ولقد كان على مبارك يحضر هذه المحاضرات بنفسه، ليزيد فى تشجيعه فى مختلف الوزارات وخاصة وزارة المعارف، ولقد كانت هذه المحاضرات تلقى بشكل يومى ماعدا أيام الجمع.

٤ ـ دار العلوم: (١٨٧٢):

وهى من أنفع منشآت على مبارك، أسسها عام ١٨٧٢، وكان الغرض

الأصلى منها تخريج أساتذة اللغة العربية والآداب للمدارس الابتدائية، ثم للمدارس كافة. ومرجع الفكرة فى تأسيسها، أنه لما أنشئت المدارس الابتدائية، واتجه العزم إلى الاكثار منها، مست الحاجة الى طائفة من الأساتذة لتدريس اللغة العربية وآدابها فى المدارس الحديثة، فأرتأى على مبارك انشاء مدرسة عليا دعاها «دارالعلوم» واختار تلامذتها من خيرة طلبة الأزهر(٣٢). وقد اثمرت المدرسة، وتخرج منها أساتذة اللغة العربية والآداب العربية للمدارس الابتدائية فى القاهرة والأقاليم، ثم المدارس الثانوية والعالية ويعد انشاء دار العلوم أعظم خدمة اسداها على مبارك لاحياء اللغة العربية وآدابها فى مصر.

ويرجح أحمد عزت عبد الكريم انشائها بانشاء قاعة عامة للمحاضرات تلحق بالكتبخانة الخديوية، وتتولى الأوقاف الانفاق عليها وعرفت باسم «مدرسة الكتبخانة»، أو «محل التدريس» أو «دار العلوم» أو «المدرج» أو «الانفيتاتر» (٣٣) وأختير عدد من الأساتذة يحاضرون فى الأدب والتفسير والحديث والفقه والفلك والطبيعة والعمارة الحديثة والتاريخ والنبات ورأى ديوان المدارس أن يفيد من محاضرات العلوم العربية والشرعية فى اعداد معلمى اللغة العربية للمكاتب الأهلية، فقرر أن يلحق عشرة من طلاب الأزهر ممن تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين، للاستماع اليها، بجانب دراستهم الأصلية فى الأزهرفكانت تلك هى البداية فى انشاء دار العلوم.

٥ ـ جهوده فى التأليف والترجمة:

وثمة ناحية أخرى نالت من عناية على مبارك الشئ الكبير، وتلك

هى تشجيـعه الدائم لحركة الترجمة والتأليف ـ لقد حذا حذو الطهطاوى فـى ذلك ـ فقد كان كثيرا مايعهد إليه بعض الأساتذة بترجمة بعض الكتب التى يـرون فيها فائـدة علميـة لطـلاب العلم ومريديه وكان كثيراً ما يشجع على التأليف فى بعض النواحى العلمية التى كان يرى فيها نفعاً للنهضـة العلميـة والثقافية وإجلاء لفكرة غامضة أو شرحاً لموضوع مفيد(٣٤). وتأتى هذه الفكرة نتيجة لنهضة البلاد فى التعليم، وكان لزاما وجـود حـركة فى التـأليف والتـرجمة تسايرها، وقد قام بقسط وافر فى هـذا البـاب رفاعـة الطهـطاوى وقـام على مبارك أيضاً بنصيبه الوافر فى هذا المجال.

ولقد ألف مبـارك فى العلوم والرياضيـات والأدب والتاريخ والجغرافيا والاجتماع فبرز فيها جميعا وترك وراءه آثاراً نافعة أفادت المشتغلين بهذه الفنون كل هذا إلى جانب تشجيعه الدائم لترجمة الكتب والتى رأى فيها فائدة لطلاب العلم والمثقفين، وبذلك يكون على مبارك قد أسهم بقسط وافر فى احياء حركة الاستنارة والتنوير، ودفع النهضة العلمية والثقافية إلى الأمام بهذه الجهود السابقة.

٦ ـ بيته فى الحامية:

لقد كان بيته ناديا عجيب الشأن يجتمع فيه كل ليلة طلبة المدارس وأساتذتها من كل نوع حتى تمتلئ بهم الدار وينتقل هو بينهم يخاطب كـل جماعة منهم فى شأن من شئون العلم يتناسب معهم، فيخاطب الطلبة فى حال مدارسهم ومقدار تحصيلهم للدرس ومايشكون منه فى نظم التدريس ومايقترحون لاصلاحها. ويخاطب المدرسين فى تدريسهم وانتقاداته

عليهـم ويسـتحثهم على التأليف فى الموضوعات التى يقترحها [٣٥]، ومايبنغـى أن تكون عليه الكتب والثقافة وبذلك أصبحت داره نـدوة من النـوادى الثقافيـة يـزورها أهـل العلم والمعرفة طلابا وأساتذة، فنعم المعلم والمرب.

رابعا: على مبارك والثورة العرابية:

هبت عواصف الثورة العرابية، ولم يكن على مبارك من أنصار الثورة، بل كان يميل إلى الاعتدال وأخذ الأمور بالحكمة والهوادة، ونصح العرابيين بالروية فلم يسمعوا له نصحا. ولقد كان عضوا فى وزارة رياض باشا التى تحركت الثورة لمناوأتها واسقاطها، وقد سقطت فعلا فى سبتمبر عام ١٨٨١ نزولا على ارادة الثورة، وألف شريف باشا الوزارة الجديدة [٣٦]. ولما قامت الحرب بين العرابيين والانجليز، وانحاز الخديوى توفيق إلى الاحتلال انعقدت جمعية عمومية فى القاهرة تضم أعيان البلاد وذوى المكانة فيها، وحضر على مبارك هذه الجمعية، وكان ضمن الوفد الذى انتدبته الجمعية للسفر إلى الإسكندرية، ومقابلة الخديوى توفيق، لابلاغه قرارات الجمعية، فلما وصل إلى الإسكندرية سعى فى طريقه لتهدئة الحالة، فلم يفلح فانحاز إلى الخديوى ضد الثورة والثوار.

ولكن بعد الاحتلال البريطانى لمصر ألفت وزارة مصطفى رياض باشا، وعهد إلى على مبارك بنظارة المعارف، ولكن ماأبعد الفرق بين الحالين وماأشد الاختلاف بين العهدين. لقد كان فى العهد الأول وقبل الاحتلال ـ حرا طليقا – يفكر كما يشاء ويفعل مايشاء. ويدير الأمور على ولى الأمر ليقره عليها ويتلقى نصائحه فيها [٣٧]، أما فى هذا

العهـد فليس حـرا طليقـا، ولايفكر الا اذا سـمح له المستـشـار الانجليـزى بالتفكيـر ولايفعل الا فـى الـدائرة المحدودة التى خططها المحتلون، وقد عبر هو عن ضيق صدره فى ذلك الوقت بأسلوبه الناعم الهـادئ، اذ يقـول فى هذه الحقبة: «وأنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح، بقدر الامكان والله المستعان».

ولقـد اصطدم بعـد ذلك بالقيـود التى قيـدت بهـا المصـالح الحكوميـة، وخاصة القيود المالية التى وضعها المستـشار المالى «الفرد ملنر» (لورد ملنر فيما بعد) هذه القيود جعلته يتنحى عن منصبه.

ورغم أن على مبارك لم يدرك مساوئ الاحتلال الا عندما تولى النظارة، ولكنه لـم يشترك فى الثورة العرابية، اذ كان مزاجه ليس مزاجا ثوريا بحكم نشأته وتربيته ـ على عكس مزاج الأفغانى، الثورى العنيف ـ ولقد كان مبدأ الطهطاوى أيضـا – اطاع عبـاس الأول وسعيـدا واسمـاعيـلا وخدمهم فى اخلاص [٣٨]. ولعله ـ كبـعض المصلحين التنويرين ـ يرى أن اصـلاح التعليم خير أنواع الاصلاح بل هو خير من الاصلاح السياسى، ويرى ان الاصلاح السياسى مالم يرتكز على الاصلاح التعليمى فلا بقاء ولا قيمة فيه ـ ولذلك لانرى له أصبعا مافى الثورة العرابية – ويمكن القول أن هذا لم يكن مبدأ على مبارك وحده بل كان مبدأ كل المصلحين التنويرين أمثال الطهطاوى ومحمد عبده وعبد الله فكرى وحتى مصطفى كامل نفسه كل هؤلاء آمنوا أنه يمكن التغيير عن طريق الود والدعوة والتعليم لا عن طريق الثورة والصدام المسلح لمجابهة جيش الاحتلال. ويمكن القول أيضا أننا نضع جمال الدين الافغانى هذا الثورى العنيد فى جانب وكل مصلحى القرن

التاسع عشر فى جانب آخر، ولقد علمتنا الايام أنه طالما أن هناك احتلالا وأرضا مغتصبة فلا مجال لحسن النوايا وحسن الطباع، فاسترداد الأرض المغتصبة لايتم الا بالثورة، وايجاد جيش مسلح قوى يستطيع ان يواجهه العدو مهما كان أمره وقوته.



المصادر والهوامش

١ - جورجى زيدان، بناء النهضة العربية، مرجع سابق، ص ١٢٧ .

٢ - عبد الرحمن الرافعى، عصر اسماعيل، جـ ١ ، مرجع سابق، ص ٢١١ .

٣ - أحـمـد أمين، **زعـمـاء الاصـلاح فى العصـر الحـديث**، (القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٤٨)، ص ١٩٠ .

٤ - عـمر عـبد العـزيز عـمـر، **دراسـات فى تاريخ مـصـر الحـديث**، (الاسكندرية، الدار الجامعية، ١٩٧٠)، ص ٢٣٦ .

٥ - حسين فوزى النجار، **على مبارك أبو التعليم**، (أعلام العرب العدد ٧١ القاهرة، نوفمبر ١٩٦٧)، ص ١١١ .

٦ - أمين سـامى، **تقـويم النيل، جـ ٣، م٢**، (القـاهـرة، دار الكتـب المصـريـة، ١٩٣٦) ص ٧٢٢ .

٧ - حسين فوزى النجار، على مبارك، ص ٩٨ .

٨ - عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، ص٢٣١ .

٩ - سـعـيـد زايـد، **علـى مـبارك وأعمالـه**، (القاهـرة، الأنجلـو المصـريـة، ١٩٥٧)، ص ص ٧١ - ٧٢ .

١٠ - سعد مرسى أحمد، **تطور الفكر التربوى**، (القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٠)، ص ٣٦٣ .

١١ - سعيد زايد، على مبارك وأعماله، مرجع سابق، ص ٧٤ .

١٢ - المرجع السابق، ص ٧٧ .

١٣- سعد مرسى أحمد، تطور الفكر التربوى، مرجع سابق، (ص٣٦٤ .

١٤ ـ المرجع السابق، ص ٣٦٧، وسعيد زايد: على مبارك وأعماله، ص ٧٧، ٧٨ .

١٥ ـ عبد الرحمن الرافعى، عصر اسماعيل، جـ١ ، مرجع سابق، ص ٢٣٢ .

١٦ ـ سعيد زايد، على مبارك وأعماله، مرجع سابق، ص ٧٣ .

١٧ ـ المرجع السابق، ص ٧٨، وعبد الرحمن الرافعى: عصر اسماعيل جـ ١ ، ص ٢٣٢ .

١٨ ـ أبوالفتوح رضوان، **«على مبارك تلميذا ومربيا»**، (بمجلة الرائد، عدد مايو، ١٩٥٨) .

١٩ ـ سعيد زايد، على مبارك وأعماله، مرجع سابق، ص ص ٦٥ ـ ٦٨ .

٢٠ ـ المرجع السابق، ص ٦٥ .

٢١ ـ أحمد أمين، زعماء الاصلاح فى العصر الحديث، مرجع سابق، ص ١٩٦ .

٢٢ ـ سعد مرسى أحمد، مرجع سابق، ص ٣٥٨.

٢٣ ـ سعيد زايد، على مبارك وأعماله، مرجع سابق، ص ٧٤ .

٢٤ ـ حسين فوزى النجار، على مبارك، مرجع سابق، ص ١٤٣ .

٢٥ ـ محمد عمارة، **«مقام العقل عند على مبارك»**، (مجلة قضايا عربية، العدد الخامس، السنة الرابعة، نوفمبر، ١٩٧٧)، ص ٧٤ .

٢٦ ـ سعيد زايد، على مبارك وأعماله، ص ص ٨٨ ـ ٨٩ .

٢٧ ـ على مبارك، **علم الدين**، (الاسكندرية، مطبعة جريدة المحروسة، ١٨٨٢)، ص ٦ .

٢٨ ـ روضة المدارس، العدد٢ ، السنة الأولى الى الرابعة (١٢٨٧ ـ ١٢٩٠) .

٢٩ ـ على مبارك، علم الدين، مرجع سابق، ص ٧ .

٣٠ ـ عبد الرحمن الرافعى، عصر اسماعيل جـ ١ ، مرجع سابق، ص ٣٤٦ .

٣١ ـ أحمد أمين، زعماء الاصلاح فى العصر الحديث، ص١٩٩ ، وسعيد زايد: على مبارك، ص٨٧ .

٣٢ ـ علـى مبارك، **الخطط التوفيقية، جـ ٣** ، (القاهرة، مطبعة بولاق، ١٣٠٦ هـ) ، ص ١٤ .

٣٣ ـ سعيد زايد، على مبارك وأعماله، ص ص ٨٧ ـ ٨٩ ، وأحمد أمين، زعماء الاصلاح، ص ١٩٨ .

٣٤ ـ عبد الرحمن الرافعى، عصر اسماعيل جـ١ ، ص ٢٣٢ .

٣٥ ـ أحمد عزت عبد الكريم، **تاريخ التعليم فى مصر، عصر اسماعيل** (القاهرة، وزارة المعارف العمومية، ١٩٤٥) ، ص ص ٥٧٨ ـ ٥٧٩ .

٣٦– سعيد زايد، مرجع سابق، ص ٨٩ .

٣٧– أحمد أمين، زعماء الاصلاح فى العصر الحديث، مرجع سابق، ص ٢٠٠ .

٣٨ـ عبد الرحمن الرافعى، عصر اسماعيل جـ١ ، مرجع سابق، ص ٢٣٨ .

٣٩ ـ أحمد أمين: مرجع سابق، ص ٢٠٢ .

٤٠– أحمد أمين، زعماء الاصلاح فى العصر الحديث، مرجع سابق، ص٢٠١ .

الفصل
الثالث

محمد عبده
تنوير الأذهان
(١٨٤٢ - ١٩٠٥)

- ❑ حياتــه
- ❑ فلسفتـه التربويـة



محمد عبده

(١٨٤٢ - ١٩٠٥م)

محمد عبده

تنوير الأذهان

(١٨٤٢-١٩٠٥)

أولاً- نشأته وحياته:

ولد محمد عبده عام ١٨٤٢ بقرية مصرية - محلة نصر - مديرية الغربية من أبوين مصريين متوسطى الحال. تعلم القراءة والكتابة فى منزل والديه دون أن يذهب إلى «الكُتّاب» (١) وبعد أن جاوز العاشرة من عمره أتم حفظ القرآن على حافظ خاص. ثم ذهب بعد ذلك إلى «الجامع الأحمدى» بطنطا ليتعلم تجويد القرآن وقواعد اللغة العربية. لكن منهج التعليم فى الجامع الأحمدى كان منهجا وعراً وشاقاً يخالف ماتقضى به أبسط قواعد التربية. وكاد محمد عبده أن ينصرف عن العلم وأن يشتغل بالزراعة، لولا أن قيض الله له بأحد أخوال أبيه، الشيخ «درويش» وهو رجل صوفى طيب القلب استطاع فى خمسة عشر يوما أن يروض جماع الفتى وأن يوجهه إلى المعانى القدسية واللذائذ الروحية (٢) فى القرآن الكريم.

(١) محمد عبده والأزهر:

ولكن الحادث الجليل فى شباب محمد عبده هو التحاقه عام ١٨٦٦ بالجامع الأزهر أهم مركز للثقافة الاسلامية، وانفق محمد عبده فى تلك الجامعة زهاء ثلاث سنوات، دون أن يجنى فائدة تذكر من الدروس التى كان يستمع اليها هناك. ولاشك أن مرجع ذلك إلى طريقة التدريس السائد فى الأزهر، تلك الطريقة الجامدة العقيمة التى كانت تفرض على طلاب

العلم مختصرات لاتفهم الا شروح وحواش وتقارير، وانما تزحم ذاكرتهم بحشد مشوش من المعلومات النحوية المتشابكة والتدفقات التى تزهق الفكر وتعوق تقدمه. فانصرف محمد عبده عن العلوم الأزهرية، وتطلعت نفسه إلى علوم جديدة، وفى عام ١٨٧٧ تقدم محمد عبده لامتحان العالمية فى الأزهر، فظفر بالشهادة على الرغم من الشكوك التى حامت حول اسمه، لاتصاله بجمال الدين الافغانى، ولكتاباته الفصول داعيا إلى التجديد وترك التقليد. وأخذ محمد عبده يلقى دروسا فى المنطق وعلم الكلام والأخلاق وامتازت دروسه بمنهج جديد جمع حوله عدد من الطلاب. وفى سنة ١٨٧٩ أصبح محمد عبده أستاذا للتاريخ فى مدرسة «دار العلوم» واستاذا للآداب فى مدرسة الألسن، وظل يشغل هاتين الوظيفتين إلى جانب مواصلته لدروسه فى الأزهر (٣).

(٢) محمد عبده فى فرنسا:

لقد هبط محمد عبده أرض فرنسا ـ بلد الاستنارة ـ أول مرة فى مستهل عام ١٨٨٤، وفى باريس التقى من جديد بأستاذه جمال الدين الأفغانى، وهناك عملا معا على تأسيس جمعية وصحيفة أسبوعية باسم «العروة الوثقى» جعلت همها الدعوة الى الجامعة الشرقية والزود عن كرامة الشرقيين، ومكافحة التسلط الأجنبى والطغيان الداخلى، وتخليص مصر من الاحتلال البريطانى بوجه خاص (٤). وكانت العروة الوثقى أول صحيفة عربية ظهرت فى أوروبا. ونهضت بمثل هذه المهمة الشاقة وزادت عنها فى حماسة وبلاغة واخلاص ليس لهما نظير فى تاريخ الصحافة العربية فى ذلك الوقت العصيب.

(٣) محمد عبده والوقائع المصرية:

وفى مستهل حكم الخديو توفيق عين رياض باشا محمد عبده محررا للجريدة الرسمية وأصبح رجل الدين الأزهرى بعد قليل رئيس التحرير. وبفضل من وعيه انتقلت الجريدة إلى عهد النشاط والاشراق، وفيها برز مايميز عمل محمد عبده من الاتجاه نحو الاصلاح الدينى والأخلاقى: كان الشيخ فيها بحق مصلحا ومعلما فى آن واحد: كانت غايته رفع مستوى الأمة وتقويم أخلاقها والنهوض بها نهضة اجتماعية فى تدرج وأناة. ومن غير عنف ولاطفرة ـ نقض منهج الطهطاوى وعلى مبارك فى التغيير ـ وكان يعتقد أن ذلك يتم اذا سلك قادة الأمة سبيل التربية والتثقيف، لاسبيل تقليد الغرب من غير فهم نافذ ولاادراك عميق، أو التمسك بظواهر المدنية المادية مع الغفلة عن صميم المدنية الروحية (٥).

ومما لاشك فيه أن صحيفة الوقائع المصرية تحولت على يد هذا المحرر «الرسمى» إلى منبر لنشر الدعوة واعلان الشكوى، واسماع الحكومة ماتريد أن تسمعه ومالاتريد أن يسمع بحال، وقال الشيخ محمد عبده على صفحاتها كل ماكان قائله لو تكلم فى حلقات الأزهر أو على منحة التدريس بدار العلوم، ولا يتسع المجال هنا لاكثر من الاشارة إلى عناوين بعض المقالات التى نشرها للناس باسم الوقائع الرسمية، ومنها مقال فى انتقاد التعليم بوزارة المعارف، ومقال عن التربية فى المدارس والمكاتب الأميرية ومقال فى الحملة على الرشوة، ومقال فى السخرية من البدع التى تصدرمن نظارة الأوقاف ومقال عن تأثير التعليم فى العقيدة ومقال عن الشورى وآخر عن اختلاف القوانين بأختلاف الأمم (٦). وغيرها قرابة أربعين مقالا أو أربعين درسا فى أمثال هذه الشئون القومية التى يتجه فيها

الخطـاب للأمـة والحكومـة. ويتـضـح مـن جـملة هذه المقـالات أنهـا اهتمــت اهتـمـاما خاصا بالتربية والتعليم، حيث اعتبرها الأداة والوسيلة لقيادة الأمة للتطور.

(٤) محمد عبده أول داعية لانشاء الجامعة المصرية:

من الانصاف أن نذكر جهود الأستاذ الامام محمد عبده فى الدعوة إلى انشاء «جامعة مصرية» حديثة، بعد أن يئس من اصلاح الجامعة الأزهرية العتيقة، وهى جهود غفل عنها أكثر الجامعيين المصريين، وان كان قد نوه بهـا بعض الكتـاب الغـربيين مـشكورين: منذ عـام ١٩٠٥ نشـر «السـيـر دوجرفيل» فى كتاب له عن مصر، مصر الحديثة "Modern Egypt" رسالة فرنسية كتبها محمد عبده نفسه جاء فيها بهذا الصدد: اذا نظرنا إلى التعليم الذى تنشره الحكومة من حيث قيمته، فنحن مضطرون إلى أن نلاحظ أنه لايكاد يقدر الا على تكوين رجل محترف بحرفة يكتسب بها عيشه. ومن المستحيل أن يستطيع هذا التعليم تكوين عالم أو كاتب أو فيلسوف فضلا عن تكوين نابغة وكل مالدينا من المدارس التى تمثل التعليم العإلى فى مصر انما فى مدرسة الحقوق والطب والهندسة وأما بقية الفروع التى يتكون منها العلم الانسانى، فقد ينال منها المصرى صورا سطحية فى المدارس الاعدادية ويكاد يكون من المستحيل أن ينفق منها شيئا وهو فى الغالب مكره على أن يجهلها جهلا تاما: ذلك شأن علم الاجتماع وفروعه التاريخية والخلقية والاقتـصـادية، وذلك شـأن الفلسـفـة القـديمة والحـديثـة. والآداب العـربيـة والأوروبية والفنون الجـميلة أيضـا، كل ذلك مجهـول لايدرس فى مـدرسـة مصرية. والنتيجة أن فى مصر قضاة ومحامين وأطباء ومهندسين تختلف كفاءتهم قوة وضعفا فى احتراف حرفهم. ولكنك لاترى فى الطبقة المتعلمة

الرجل الباحث ولا المفكر ولا الفيلسوف ولا العالم. لاترى الرجل ذا العقل الواسع والنفس العالية والشعور الكريم، وذلك الذى يرى حياته كلها فى مثل أعلى يطمع فيه ويسمو إليه (٧).

ولكن فى سنة ١٩١١ وجدنا كاتبا سياسيا وفرنسيا آخر ينوه بمجهود محمد عبده فى هذا الأمر فيقول: ان الشيخ كان ينوى العمل على أن ينشأ فى مصر، إلى جانب جامعة الأزهر الدينية ذات النفوذ العظيم، جامعة أخرى اسلامية مصرية مهمتها أن تقوم على تعليم العلم وفقا للمناهج الحديثة، وأن تشارك فى تجديد الحضارة العربية القديمة بالدأب على الاقتباس من النتائج التى توصل إليها علماء الغرب فى العلوم والآداب، والفنون (٨).

ويتضح مماسبق أن لمحمد عبده السبق فى التفكير فى انشاء الجامعة المصرية بل لقد ذهب الأستاذ الأمام - كدأبه - من التفكير إلى التنفيذ، فبذل جهود كثيرة حتى أقنع «أحمد المنشاوى باشا» بأن يوقف لبناء الجامعة قطعة أرض فى احدى ضواحى القاهرة، وشرع المنشاوى باشا فى اعداد العدة لذلك، ولكنه قضى نحبه، فوقف المشروع عن التنفيذ (٩) وفى ١١ يوليو عام ١٩٠٥ توفى الأستاذ وهو فى أوج نشاطه دون أن يتوفر له الوقت أو الوسائل لانجاز جميع مشروعاته الاصلاحية (١٠)، ولقد قامت مصر شيعا وحكومة بتشييع وفاته، كما كانت وفاته حداداً عاما فى جميع أرجاء العالم الاسلامى، لما بذله وحاول أن يبذله فى سبيل اصلاح المجتمع المصرى حينذاك.

٥ ـ اهتمام محمد عبده بالتربية والتعليم:

لاجدال أن محمد عبده كان يريد أن يسيطر على برامج التعليم فى المدارس، حتى يصلح النفوس بالتوسع فى التاريخ الاسلامى، وبث مبادئ الدين الصحيح، ولهذا كان ينتهز كل فرصة لتقديم تقرير عن التعليم، فعل ذلك لما كان فى الوقائع المصرية، قبل قيام الثورة العرابية، حتى شكل مجلس التعليم الأعلى بناء على سعيه، وكان هو فيه عضوا بارزا، فعل ذلك عندما كان فى بيروت، فكتب تقريرا فى اصلاح التعليم رفعه إلى شيخ الاسلام فى الأستانة، حتى أنه لم يتحرج أن يرفع تقريرا بذلك إلى (اللورد كرومر) بعد عودته (١١) فلما لم تتحقق مطالبه رجا أن يكون على رأس دار العلوم يبث روحه فى طلبتها فيبثون روحهم فى طلبتهم، فلما يئس من ذلك أيضا وجه همته إلى الجمعية الخيرية الاسلامية يضع لتلاميذها مناهج دراستهم. وهكذا كان دائما يريد أن يسيطرعلى التعليم ليوجه الوجهة التى يريدها ألا وهى اصلاح أحواله وشئونه.

ولاشك أن الذى دفع الأستاذ الأمام إلى اهتمامه بالتربية والتعليم، هو فقده الثقة منذ زمن طويل فى كل اصلاح سياسى على نحو ماكان يريده جمال الدين الافغانى فبعد أن تعطلت مجلة العروة الوثقى ـ أواخر سنة ١٨٨٤ ـ وبعد أن فشلت مشروعات الجامعة الاسلامية التى كان الافغانى يدعو لها، اقترح محمد عبده على استاذه أن يعتزلا الاشتغال بالسياسة، وأن ينصرفا إلى انشاء مدرسة تعنى بتربية الشبيبة وفقا لمنهج ومقاصد جديدة، وبهذا يصلان عن طريق التربية إلى اصلاح الأخلاق، وتكوين صفوة من الشباب المصرى تلائم تربيته المثل العليا التى

ينشدانها[١٢] واذا كانت النتائج التى يحصل عليها المصلح عن طريق التربية أبطأ تحققا وأقل جلبة، الا أنها بلا ريب أوثق وأعمق وأبقى أثرا. ولما كان المفكر المصرى يؤثر التدرج فى الاصلاح ويراه أكفل فى بلوغ النتائج المنشودة، فقد بادر بالعمل لاصلاح التعليم، وهو فى نظره شرط لاغنى عنه لتقويم الأخلاق. وهذا الجانب من التربية الأخلاقية فى مذهب محمد عبده يفسر لنا ماظفر به الفيلسوف المصلح من أثر بالغ عميق فى مصر والعالم الاسلامى وكذلك يفسر لنا اهتمام محمد عبده بالتربية الأخلاقية وتأثره بالفيلسوف الألمانى كانط Kant حيث ركز اهتمامه بالتربية الأخلاقية للشبيبة واعتبرها مدخلا هاما فى تغيير المجتمع وتطويره وتقدمه.

٦ ـ محمد عبده والأفغانى:

جاء الأفغانى إلى مصرعام ١٨٧١، وكان محمد عبده لايزال طالبا فى الأزهر ولقد تولى جمال الدين الأفغانى تعليم المنطق والفلسفة فانخرط محمد عبده فى سلك تلامذته مع جماعة من نوابغ المصريين تخرجوا على يد الأفغانى فخرجوا لايشق لهم غبار كأن الرجل نفخ فيهم من روحه ففتحوا أعينهم وأذانهم فى ظله وقد جاءهم النور فاقتبسوا منه فضلا من العلم والفلسفة روحا حية أرتهم حالهم كما هى اذا تمزقت عن عقولهم حجب الأوهام فنشطوا للعمل فى الكتابة، ولقد كان محمد عبده الصق الجميع إلى الأفغانى وأقربهم إلى طبعه وأقدرهم على مباراته. فلما قضى على جمال الدين الأفغانى بالابعاد عن مصر قال يوم وداعه لبعض تلامذته: قد تركت لكم الشيخ محمد عبده و كفى به لمصر عالما [١٣].

ولقد ترك على كل الذين عرفوه تأثيرا قويا: فقد ترك تأثيره على الذين يكرسون أنفسهم لمبادئهم: العناد، الغضب من الظلم، الثورة ضد الظلم والطغيان، وقد كرس أكبر قدر من حياته للدفاع عن البلاد الاسلامية التى هددها خطر التوسع الأوروبى ولكن أفكاره لم تكن سياسية محضة وكان اهتمامه الرئيسى، هى كيف نجعل البلاد الاسلامية قوية وناجحة من الناحية السياسية أو كيف نشجع المسلمين أن يفهموا دينهم على نحو صحيح وأن يعيشوا فى حوزة تعاليمه أنهم لو فعلوا ذلك ـ كما يعتقد ـ فسوف تقوى بلادهم. وقد تصبح المشكلة أكثر أهمية كلما كان هناك خطر من الخارج ولكن بطبيعة الحال فان قوة الضغط الأوروبى اعطتها دفعة جديدة. ولقد عاش الأفغانى فى عصر امتدت فيه القوة الأوروبية فى كل أرجاء العالم حتى لم تكن هناك بلد واحد يأمن بأمان الاستقلال الا ويحس بضغط ومنافسة البلاد الأوروبية. ولقد كان الأفغانى على دراية فى كل مراحل حياته بهذا كله (١٤) ولعل هذا هو الذى أوجد لديه وضوح الرؤية فى طريق نضاله السياسى، وتعتبر هذه أهم معالم فلسفته السياسية والاجتماعية التى عاش حياته كلها يدافع عنها.

وكان الأفغانى شعلة ذكاء، وقوة هائلة، متحركة ومحركة، لايمسها ماس الا شحن من كهربائه على قدر استعداده، دائم التفكير، دائم القول لمن يفهم ومن لايفهم دائم النقد، دافع الحركة والثورة والهيجان بالمطالبة بالحقوق، حينما يحل بمكان ترى نارا تشتعل وأفكارا تهيج ومطالب تطلب، وحكومة تضطرب، ولقد حدد غرضه فى الحياة ووهب نفسه للوصول إليه، وهو أنهاض الدولة الاسلامية من ضعفها، وتبصر شعوبها بحقوقها، ورفع نير الأجنبى عنها، وتحديد مركز الحاكم والمحكوم فيها، وربط هذه الدولة كلها

برباط واحد مع الخلافة فى الاستانة (١٥)، ووسيلته إلى ذلك تنوير عقول الخاصة من أبناء كل دولة حتى يعرفوا مركزهم، وأعدادهم لمهاجمة الغاصبين من الأجانب والمستبدين من الحكام ثم هؤلاء يعملون لتكوين الرأى العام بكتابة المقالات فى الجرائد والمجلات والخطب فى المحافل. والأحاديث في المجالس، وكلما كانت المقالات والخطب أحر نارا وأجهر بالرأى وأصرح فى الدعوة إلى العمل كانت أجود وأنسب، وكانت هذه خطته ووسيلته فى كل بلد يحل به.

وإذا كان بامكان فرد واحد أن يصبح عنصرا فعالا فى حياة أمة فان هذا الفرد هو الأفغانى : فالأفغانى كان الشخصية الثائرة الشجاعة المفكرة الواعية. التى استطاعت أن تعبئ السخط وأن تجلو عنه غشاوات الماضى محددة الحقائق ببساطة شديدة ووضوح تام. ولكن أعظم مافى الأفغانى أنه كان ذلك الشخص الذى استطاع أن يجمع كل قوى البرجوازية الصغيرة والمتوسطة فى المدينة. فهو رجل دين ومثقف عصرى فى وقت واحد. وهو يحارب الأجانب ويدعو إلى حرية التجارة وتخليصها من تسلط الغرباء (السماسرة). وهو يدعو لحكومة مسئولة لمجلس نيابى وفق اطار اسلامى (١٦) وهو باختصار يعبر عن أمانى كل القوى المتذمرة فى المدينة ويجلو الغموض عن طريقها ويحدد معالم واضحة صريحة.

وفور استقرار الأفغانى فى مصر التفت حوله مجموعة من الشباب المثقف. أزهريين وعصريين وكونوا مايشبه الحلقة الدراسية السرية. ومن هؤلاء محمد عبده وابراهيم اللقانى وسعد زغلول وعلى مظهر وحفنى ناصف وعبد السلام المويلحى وابراهيم المويلحى وسليم نقاش وأديب اسحق ومحمود سامى البارودى وعبد الكريم سلمان وعبد الله النديم وابراهيم

الهلباوى [١٧] وكان الأفغانى يحدث طلابه بشئ جديد كل الجدة. حاول بعضهم أن يحول الجلسة إلى ندوة صوفية، وأن يحول كل السخط الذى تموج به النفوس إلى انطواء صوفى ينعزل عن الناس يهدف إلى «الفناء فى الله» فيرد الأفغانى على ذلك ببساطة العالم والثورى معا : أنا لاأفهم معنى لقولهم الفناء فى الله وانما الفناء يكون فى خلق الله، تعليمهم وتنبيههم إلى وسائل سعادتهم ومافيه خيرهم [١٨].

(أ) الأفغاني والمحفل الماسوني: نماذج من جهاده:

كان من أهداف الأفغانى السعى إلى العمل المنظم، إلى تكوين جماعة ذات نظام ودستور وأهداف تكسب الأنصار والأعوان ولم يجد أمامه سوى النموذج الماسوني: فأنشأ محفلا تابعا للشرق الفرنسى، والحقيقة أن لجوء الأفغانى إلى النموذج الماسونى كان دليلا على ذكائه ودليلا على موقفه الاجتماعى ومنهجه فى العمل ـ فالأفغانى مثقف ليبرإلى . يكره الظلم والطغيان ويسعى لاصلاح العالم الاسلامى ويؤمن بالتعليم وسيلة لذلك – ولم يكن يدور بخلد الأفغانى أن يشعل ثورة من جموع الفلاحين أو جماهير الشعب. ولكنه أراد أن يجمع حوله قيادة واعية من المثقفين المستنيرين والتجار والأعيان وضباط الجيش (كوادر) وكان هدفه الأمثل هو كسب توفيق إلى صف جماعته اذا ماأطاح باسماعيل ووصل توفيق والجماعة إلى السلطة ليحققوا أهدافهم (نفس النموذج الكلاسيكى القديم.. الأمير العادل المصلح) فاذا ماكسب توفيق إلى صفه أو خيل إليه ذلك لم يعد هناك سوى التخلص من اسماعيل، فيتفق مع تلميذه محمد عبده على اغتياله وهو يمر على كوبرى قصر النيل ويقول محمد عبده: لكننا لم ننفذ خطتنا فقد كانت تنقصنا إليد المنفذة [٢٠].

وفى المحفل الماسونى يجمع الأفغانى ٣٠٠ شخص من الأدباء والصحفيين والأزهريين المستنيرين وضباط الجيش وعلية القوم وينظم الأفغانى محفلة، شعبا.. شعبة للمإلية وأخرى للحقانية وثالثة للجهادية ورابعة للأشغال العامة، وبهذا صار لكل وزارة شعبة تتوفر على ادارة شئونها وتلم بجوانب النشاط فيها تتصل بالوزير لتبلغه رغباتها وتوجيهاتها (٢١) ـ شكل المنظمات السرية ـ وكان المحفل يشتغل بعلم الحكومة لايخشى ولايبإلى اضطهادا ولايبال بما يقول القائلون. والتحق به قسم عظيم من رجال البلاد من وطنيين مصريين وأجانب وفى جملتهم حليم باشا ساكن الجنان محمد على والأمير عبد القادر الجزائرى المشهور (٢٢) ولكن الخطة كلها تفشل فاذا كان الأفغانى قد أنضم للماسونية «على أمل فى مناصرة أعضائه الشرقيين والأوروبيين لدعوته العامة تصديقا لما شاع من مزاعم الماسون أنهم ينتصرون للحرية الانسانية فقد تبين بطلان هذه المزاعم ونفض يديه من المحافل العامة. وجمع خلاصة أصدقائه وتلامذته ومريديه كأنما أسماءهم فى سرية تامة حماية لهم من كيد وكلاء الدول وجواسيس الحكومة» (٢٣) وهكذا تفشل خطة الأفغانى فى المحفل الماسونى، وتفشل أيضا مع توفيق: فتوفيق تلميذه وأمله يأمر بطرده من البلاد بمجرد توليه السلطة. ولكن الذى يعنينا هنا هو أن الأفغانى لم يترك بابا الا وطرقه، من أجل ابلاغ دعوته وانجاحها فى تغيير أوضاع البلاد.

ولما كان ذلك كذلك، فلقد التفت حول الأفغانى، صفوة القوم ومستنيره فى مصر. واستطاع محمد عبده ـ بفضل ماتلقاه من أستاذه من هداية روحية وثورية ـ أن يتحول نهائيا عن طريق الزهد، وأن يقبل على الحياة العامة اقباله على دراسة العلوم المختلفة كالفلسفة والرياضيات والكلام

والأخلاق والسياسة وغيرها مما لم يكن له مكان فى مناهج الأزهر (٢٤).
ولقد نشط الأفغانى لبث تعاليمه الحره التى لم يكن للناس عهد بها من قبل: وأخذ يقرأ لتلاميذه طائفة من الكتب العربية القديمة، والكتب الأوروبية المصرية فى الفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع. فكان ذلك فتحا جديدا فى موضوعات التعليم ولقد وجد محمد عبده عند الأفغانى روحا جديدة لم تكن مألوفة عند شيوخ الأزهر: وجد عنده مذهبا فلسفيا واحدا ونظرة إلى الحياة عميقة وصورة عن الكون منظمة. ولكن أهم ماستمده التلميذ من أستاذه هو الميل إلى الحرية ويقظة الوعى القومى. وفى الوقت عينه بدأ محمد عبده يمد بصرة إلى الأفاق البعيدة، فأخذ يهتم بالعلاقات السياسية بين الشرق والغرب، ويفكر فيما ينبغى لبناء الحياة الاجتماعية والسياسية فى العالم الاسلامى بناء جديدا (٢٥). وبذلك يتضح لنا مدى التأثير الذى أحدثه الأفغانى فى تكوين محمد عبده الفكرى. حيث أن لقائهما تم ومحمد عبده لم يعد بعد قد تخرج من الأزهر. وسوف نلاحظ هذه الروح الثائرة فى فكر محمد عبده فيما يلى من أحداث وجهود.

(ب) أهداف العروة الوثقى تحت ريادة الأستاذ والتلميذ:

بعد أن قضى محمد عبده فترة قصيرة ببيروت، أصدر فيها رسالتين (لائحتين) تتضمنان آراءه فى اصلاح الأمة الاسلامية وصحيفة سياسية تشن حملة على الاستعمار، وتعمل لاثارة الشعوب بالتعليم والتربية، لحق بأستاذه الأفغانى فى باريس لإصدار المغلوبة عليه، وكان مجازفة من الشيخ محمد عبده لم يكترث لعواقبها الوبيلة سنوات كادت تنقضى إلى غير نهاية موقوتة، مع المعيشة المهددة فى ديار

الغرب التـى تجمـعـها المنفعة على كل من يكافح الاستعمار ولو فى بلاد غير بلاده.

ويتلخـص برنـامج العـروة الوثقى فى مـبـدأ عـام ينطوى على مـبـادئ كـثيـرة: وهـو حرب الاسـتـعـمـار بكـل وسيـلة مسـتـطاعـة ومن تلك الوسـائـل تحريـض المحكومـين على حكومـاتهم الأجنبـيـة وازالة أسـبـاب الخـلاف بـين الـدول الاسـلامـيـة لسـد الثـغـرات التى يتـسلل منهـا المستـعـمرون لتلك الدول لتأليب بعضـهـا على بعض وتسخيرها جـمـيعا لخدمتهم. وضم الصفوف العربية والوطنية حيث يعيش المسلمون مع غير المسلمين، وهو مبدأ تأسست عليه دعوة الأفغانى قبل نفيه، ومن أجله أنشأ المحفل الماسـونى الذى أنشـأه بمـصر للاشتراك بين أتباع الديانات جميعا فى قضية الحرية (٢٦).

ولقد كانت صحيفة العروة الوثقى احدى وسائل الجماعة ولم تكن هى وسيلتها الوحيدة ولا وسيلتها الكبرى لأن الرجلين لم ينقطعا أثناء مقامها فى باريس عن الاتصال سرا وجهرا بانحاء العالم الاسلامى ولا بمراجع السياسة الفعالة فى عواصمها المشهورة. ومن ذلك أن الجماعة أوفدت الشيخ محمد عبده إلى لندن لاثارة المسألة المصرية بحذافيرها أثناء قيام «المهدى» بثورته فى السودان، وكان زبانية الاستعمار كعادتهم يخيفون المصريون من مقاصد المهـدى ويشيعون عن «مخابراتهم السرية» أنه ينوى غزو وادى النيل كله، وأن الحكـومة المصـرية لاتقوى على صده بغير الحكومة البريطانية. فلما سئل الشيـخ محمد عبده فى حديث جرى بينه وبين مندوب صحيفة «البال مال غازية» عن هذا الخطر المزعوم : قال لاخطرعلى مصر من حركة المهدى

انما الخطر على مصر من وجودكم أنتم فيها، وانكم اذا غادرتم مصر فالمهدى لن يرغب فى الهجوم علينا، ولن يكون فى هجومه أدنى خطر. لأنه محبوب من الشعب لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوروبى وسينضمون إليه عند قدومه (٢٧). وهكذا لم تتوقف جهود الرجلين للنضال من أجل مصر فى مصر، بل تجاوزا ذلك بنضال العدو فى أرضه وأمام وجهه، ويالها من شجاعة نفتقدها إليوم فى حياتنا السياسية.

ثانيا ـ فلسفة الأستاذ الأمام التربوية «نظرية التربية لديه»:

١ ـ التنوير:

لقد أهتم محمد عبده بدراسة العقل الانسانى فى نشاطه الحر، لا فيما قيد به من أغلال، واضعا نصب عينيه الفكر الحى الشخصى، لا الفكر ميتا محنطا محفوظا فى تصورات ومجردات. وكذلك اهتم بتنبيه الوجدان. وايقاظ الضمير ولقد سخط على ضيق النظر. والافتقار إلى روح النقد. وتغلب الآراء. وعقم المناقشات بين أهل الدرس، وقف من المجتمع كله موقف الناقد الحصيف منذ البداية، فأعلن حقوق الفكر الحر، وهو يقول: ان التفكير واجب على الموجود العاقل لامخلص منه، فعلى الموجود العاقل أن ينهض بجهوده الخاصة للبحث الحقيقى فى العالم الذى يكتنفه والفحص عن الموجودات والاحياء على قدر ماتتيحه له وسائله الخاصة (٢٨) ولكن اذا كان عليه أن لايهمل واجب التفكير فعليه أيضا أن يحتاط من الشطط فى الاستدلال..

وبذلك فقد نظر محمد عبده إلى الفلسفة نظرة انسانية عريضة، فأخذها

على معنى محبة الحكمة، وممارسة الفضائل الاخلاقية وهداية السلوك الانساني، وبهذا يرى الاستاذ الامام ان الخطوة الأولى فى كل مسعى فلسفى هى تنبيه الوجدان وايقاظ الضمير وانارة روح النقد تمهيدا للفهم، ولذلك نجده فى جميع أقواله ورسائله ومؤلفاته دائبا على مهاجمة التقليد أى تقبل آراء الغير دون ا لمطالبة بالدليل. ودون الالتفات إلى حق كل شخص فى استقلال النظر والفحص. حتى لاتكون الكلمة الأخيرة للنصوص البالية أو السلطات البائدة، بل للحياة النابضة، ولروح الترقى المتصل، وتوخى المصالح العامة، فان فكر أن يكون مقيدا بالعادات مستعبدا للتقاليد، فهو فكر ميت لاحياة فيه ولاقيمة له. حيث يقول الاستاذ الأمام فى ذلك: الفكر انما يكون فكرا له وجود صحيح، اذا كان مطلقا مستقلا، يجرى فى مجراه الطبيعى الذى وضعه الله تعالى إلى أن يصل إلى غايته [٢٩] وهذا البحث الحر، وهذه الحاسة الناقدة ــ على معناها عند الفيلسوف الألمانى كانط ــ هى فيما يرى الأستاذ الأمام، الخاصية الانسانية على الحقيقة، هى مايميز «الحيوان الناطق» عن سائر الحيوانات، انما بعبارة أخرى: الشجاعة فى طلب الحق، تلك الشجاعة التى تجعل طالب الحق صابرا ثابتا لاتزعزعه المخاوف، وتجعل المرء عزيزا كريما، بعيدا عن أوهام العوام، محطما أصنام السوقة. وبهذه الشجاعة يقول الأستاذ الأمام: يكون الانسان حرا خالصا من رق الأغيار، عبدا للحق وحده.

ونشتم من ذلك كله أن محمد عبده لم يشأ أن يحصر الفلسفة فى نطاق المذاهب المغلقة. ويلوح لنا أنه بهذا الصدد على اتفاق فى الرأى مع

فلاسفة التنوير من أهل القرن الثامن عشر فى فرنسا، أولئك الذين يذهبون إلى ان العقل يرى، وقد أضحى مستكملا أسباب نضجه. وانه لم تعد به حاجة إلى جهاز معقد لفلسفة اصطلاحية وانه يستطيع مستندا إلى الواقع، ان ينشأ عملا فلسفيا، مستقلا عن أى نعرة مذهبية ومعتمدا على نقد مباشر للأفكار والمعتقدات والأنظمة التقليدية (٣٠) التى قيدت حركة الفكر المستنير ردحا من الزمن، وكان لزاما عليه أن يفك آسرة منها.

أ ـ الفلسفة بين العلم والدين:

لاجدال أن محمد عبده قد اقتنع اقتناعا راسخا بأن الدين والعلم متى فهما على الوجه السليم لايمكن أن يكون بينهما خصومة أو نزاع. وهو يقول فى ذلك: العلم الصحيح مقوم الوجدان، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم. والدين الكامل علم وذوق، عقل ولب، برهان وأذهان، فكر ووجدان، فاذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقط سقطت احدى قائميه، وهيهات أن يقوم على الأخرى (٣١) وبهذا المعنى كان «رابليه» يقول: علم بلا ضمير فيه تلف للنفس «وفى وسعنا أن نقول أنه لما كان الحق لايمكن أن يكون عدوا للحق فلابد من اتفاق الفلسفة والدين، واذن فكل لاهوت ناهض الفلسفة يغدو موطن ارتياب، وكذلك يستحيل على الفلسفة ان تحل محل الدين. واذا كانت الفلسفة هى على التحقيق محبة الحكمة فلابد أن تكون مهمتها أن تؤدى إلى الدين لا أن تنأى عنه».

كان مفتاح دفاعه عن الاسلام، وكل أفكاره عنه من اعتناقه للدين على نحو صحيح: التفريق أو التمييز بين ماهو ضرورى وتميز متغير فيه وبين ماهو غير ضرورى ويمكن تغييره دون تحطيم، فالاسلام الصحيح كما يراه هو هيكل تعليمى بسيط فهو يتكون من عقائد معينة من المسائل الهامة فى حياة الانسان وبعض المبادئ العامة فى السلوك البشرى ولكى نتمكن من الوصول إلى هذه العقائد وتجسيدها فى حياتنا لابد من الاعتماد على العقل والاستيضاح به [٣٢] وبذلك فقد كان محمد عبده مسلما حقا، ولكنه كان فيلسوف أيضا، وفى وسع المرء أن يقول أن المسلم والفيلسوف لم يكونا الا شيئاً واحدا: فالمسلم يمد الفيلسوف بالأنوار العلوية، والفيلسوف يهدى إلى المسلم مناهج السير بقدر الامكان من الإيمان إلى العقل، واذن فقد تقبل محمد عبده فى آن واحد كلتا الصيغتين: «تعقل لتؤمن» و «آمن لتتعقل» وبذلك يتضح لنا أن الفكر المصرى يسلك بنا شيئاً فشيئا نحو فلسفة قد تحالفت مع الدين فأضحت تأملا فيه واستشعارا له فى النفس ومن هنا يؤكد الأستاذ الأمام أنه لاتعارض ولاتناقض أبداً بين الفلسفة والعلم والدين، هذا الثالوث الذى ينظم الكون وبدونهما لاتستقيم أمور الفكر الحر والمستنير، فالتميز لاحدهم ضرب من المبالغة وسوء الفهم.

ب ـ الاجتهاد المستنير:

لقد نشأت فى التفكير الدينى حركة لها أثرها فى مصر كلها ـ تلك حركة الشيخ محمد عبده فى الدعوى إلى التفكير الحر، وفتح باب الاجتهاد فى المسائل الدينية فقد كان الناس لذلك العهد يرون أن باب الاجتهاد قد أوصد، وأن كل فتوى على غير المذهب بدعة، وأن كل

بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار، فاذا اجترأ مجترئ على القول بغير ماجاء به من المذهب ـ أى مذهب أبى حنيفة ـ بوصفه المذهب الرسمى للدولة ـ اتهم بالالحاد والمروق واعتبر ضالا خارجا على الدين. وكان الشيخ محمد عبده قد بلغ مركز الافتاء للديار المصرية، وكان مع ذلك رجلا حر الرأى كاتبا أديبا، يتذوق جمال اللغة خير تذوق، ويدرك قواعد المنطق أحسن ادراك، لذلك رأى فى هذا الجمود مالا يلائم سليقته ومواهبه، فنادى بأن التقليد ليس من الدين فى شئ، وبأن للسلف من المعتزلة وغيرهم آراء يمكن الأخذ بها وتأييدها وان خالفت المذهب (٣٣) وذهب فى غير تردد إلى أن هذا الجمود هو الذى قضى على الأمم الاسلامية بالتأخر وجعلها طعم للاستعمار الأجنبى، فانه قيد العقل فى هذه الأمم الاسلامية بقيود منعته من الانبعاث فى تفكيره إلى غاية مايستطاع بلوغه لادراك الحق والجمال والجلال فى خلق الله جل شأنه، والسمو بذلك إلى مرتبة الايمان بالله ايمانا حقا مستنيرا، يسمو بصاحبه فوق كل عبودية لغير لله ذى الجلال.

ويتضح لنا أن الأستاذ الامام رأى أن موطن الداء هو ضعف النفوس وجمود الأذهان، ورأى أن أساس الاصلاح هو تحرير العقول من سيطرة الخرافات، واطلاق النفوس من أسر الشهوات. فشرع فى بناء جيل جديد يدرك قيمة العلم فى خوض معركة الحياة، وفهم رسالة الدين فى العمل على اسعاد المجتمع، ويميز بين مالللحاكم من حق الطاعة على الشعب وماللشعب من حق العدالة على الحاكم (٣٤) ومن خلال هذا العرض الموجز يتضح أن غاية محمد عبده كانت رفع مستوى الأمة، وتقويم أخلاقها، والنهوض بها نهضة ثقافية اجتماعية، فى تدرج وأناة وتطور، ومن غير طفرة

ولاعنف، وكان يعتقد أن ذلك يتم اذا سلك قادتها سبيل التثقيف والتربية والتنوير ونشر التعليم والتنور، لاسبيل تقليد الغرب من غير فهم ولا إدراك صحيح، أو التمسك بظواهر المدنية المادية البراقة، مع الغفاة عن صميم المدنية الروحية الصحيحة.

ولقد كان الشيخ محمد عبده رجلا جلدا صبورا على العمل من غير ملل، وكان فيلسوفا [٣٥] ولما حصل على الشهادة العالمية ابتدأ التدريس بالأزهر ويرجع إليه الفضل الأول فى تدريس العلوم الفلسفية والمنطقية بالأزهر، التى كان الأزهر محروما منها. وقد درس كتابين «ايساغوجى والقطب على الشمسية» فى علم المنطق ولقد قال عنه تلاميذه أمثال سعد زغلول: ان الذى كان يحضر دروسه فى الأزهر لايسمعه الا ان يحتقر دروس سائر العلماء [٣٦].

٢ ـ التربية الدينية ـ نقد المجتمع الاسلامى:

يأخذ محمد عبده على المسلمين انهم زيفوا تعاليم دينهم، وهو بهذا الصدد يقسم المجتمع إلى طائفتين كلتاهما ملومة فى أرائها وعقائدها.

أ ـ علماء المسلمين:

فهو يندد بما درجوا عليه من شكلية، وتزمت، وانشغال يبلغ حد المرض ـ بملاحظة أدق التفاصيل فى العبادات كالوضوء والصوم ـ كما يأخذ عليهم استخدام المعارف الدينية فى أغراض نفعية.

ب ـ العامة:

أما عقائد العامة فيرى محمد عبده أنها الفاظ لاتمت إلى الدين بسبب:

فهى عند الجمهور عود إلى العقائد الجبرية، من نحو أنه لاحرية ولااختيار للإنسان فيما يفعله، وانما هو مجبر فيما يصدر عنه جبرا محضا. فلهذا لايؤاخذ على ترك الفرائض ولا اقتراف السيئات، ومثل أن رحمة الله لاتدع ذنبا حتى تشمله بالغفران: واذن فيفعل الانسان من الموبقات مايشاء فلا عقاب عليه (٣٧) ووجه الأستاذ الأمام أعنف نقد إلى البدع المذمومة المنتشرة بين المسلمين فى عصره مثل بدعة «الدوسة» وهى عبارة أن ينطرح الناس على الأرض مصطفين أحدهم بجانب الآخر، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحد بعد واحد، حتى ينتهى من آخرهم وذلك بدعوى أنها من قبيل الكرامات (٣٨)! ان موقف محمد عبده من البدع المنتشرة فى العالم الاسلامى فى آخريات القرن التاسع عشر شبيه بموقف ابن تيمية من بدع الصوفية فى عصره.

ولقد سجل محمد عبده فى مشروعه عن اصلاح التعليم الدينى الذى كتبه أبان نفيه فى بيروت، ماينجم عن الجهل بالدين من عواقب وخيمة، فقال: وبالجملة فان ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين مع اختلاف طبقاتهم الا من عصم الله، وهم قليلون، ولهذا نراهم يفرون من الخدمة العسكرية ويطلبون للتخلص منها أية حيلة وهى من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم. نرى غيرهم من الأمم يتسابقون إلى الانتظام فى سلك جنديتهم مع أنها غير معروفة فى دينهم بل مضادة لصريح نصوصه أو نرى المسلمين يبخلون بأموالهم اذا دعت الحال إلى مساعدة الدولة والانفاق على مصالح الأمة ولايبخلون بأموالهم بذلك على شهواتهم، بعكس مانراه فى سائر الأمم، هكذا انطفأ من المسلمين مصباح العقل فلا يعرفون لهم رباطة

يرتبطون بها ولايهتدون إلى جامعة يلجأون إليها وتقطع مابينهم: تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، وذلك بأنهم قوم لايفقهون (٣٩).

وارتكانا إلى هذا الفهم، يقتنع الناقد المصلح محمد عبده، بأن التقدم الصحيح هو التقدم الداخلى (الجوانى)، تقدم المعرفة والتربية والأخلاق، وان هذا التقدم لن يكون ثابتا باقيا، الا اذا صار وئيدا أكيدا. وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول أن مارأى الأستاذ الأمام فى اصلاح المجتمع هو اقتداء بما رآه النبى العربى فى اصلاح الفرد اذ قال عليه الصلاة والسلام «مامن عبد الا وله جوانى وبرانى – بمعنى سريره وعلانية – فمن أصلح جوانيه اصلح الله برانيه ومن أفسد جوانيه أفسد الله برانيه» (٤٠) وبذلك لقد اشتغل محمد عبده بالتجديد الدينى ودعا إلى الاصلاح الاجتماعى، وكان بحق رجل علم وعمل، ورجل دنيا ودين، وراح يهاجم مايخالف الصواب من أفكار وعادات شائعة سوآء بين علماءالعصر المتخلفين التقليديين أو عامة الناس الذين ضلوا بسبب دعوات هؤلاء العلماءالزائفة والبعيدة عن الدين الحق.

ولما كان ذلك كذلك، فان الأستاذ الأمام قد دعا إلى ان العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين، فالدين عرف بالعقل، ولابد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معا حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة فى المدنية الجديدة، ونقتبس منها مايفيدنا، لأن المسلمين لايستطيعون أن يعيشوا فى عزلة (٤١) ولابد أن يتسلحوا بما تسلح به غيرهم وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم، وأكبر عمدة فى الأخلاق هو الدين ومن حسن حظ المسلمين أن دينهم يشرح صدروهم للعلم، ويحض عليه، وللعقل ويدعو إليه

وبالأخلاق الفاضلة التى تدعو إليها المدنية الحاضرة. ومن خلال ذلك نلاحظ أن التربية الدينية عند محمد عبده تعتمد على الأخلاق والعلم والدين الصحيح الخالص من الشوائب، ولقد ظل محمد عبده يدعو إلى ذلك فى محاضراته ولقاءاته ومقالاته فى الصحف والمجلات، وفى حلقات دروسه فى الأزهر ودار العلوم وبذلك كان قبس هداية وتنوير للشبيبة فى ذلك العصر، ولقد لاقت دعوته نجاحا منقطع النظير لدى جمهور المسلمين العقليين المستنيرين الراغبين فى التقدم والرقى واللحاق بركب التطور العلمى الباهر.

٣ ـ ضرورة الحرية فى التربية ـ مناصرة الحرية الانسانية:

الحرية على ضروب مختلفة: فمنها «البدنية» وهى قدرة الانسان على تحريك أعضاء البدن، و «الحرية النفسية» وهى قدرته على أن يختار فعلا مامن بين أفعال كثيرة متساوية من حيث الامكان، و «الحرية المدنية» وهى مايخول المجتمع أفراده من حق فى عمل كل مالا يلحق بالغير ضررا، و «الحرية السياسية» وهى عبارة عن حق الإنسان فى المساهمة والاطلاع بشئون الدولة. أما «الحرية الدينية» فما هى الا صورة من صور «الحرية المدنية» و «الحرية الأخلاقية» عبارة عن استقلال النفس عن طغيان الشهوات. على أن الحرية التى نود أن نبحثها هنا هى: «الحرية النفسية» ولقد شغلت هذه المشكلة مذاهب الفلسفة مكانا لايستهان به: نجدها أحيانا مجاورة للحرية الأخلاقية، كما هو الحال فى فلسفة ديكارت، ونجدها أحيانا أخرى بعيدة عنها، كما هو الحال عند اسبينوزا، الذى ينكر «الحرية النفسية» ولكنه يضع «الحرية الأخلاقية» فوق كل شئ.

ولقد دلل محمد عبده على حرية الارادة بشهادة الوجدان، فقال: كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود، ولايحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية، يزن نتائجها بعقله، ويقدرها بارادته، ثم يصدرها بقدرة مافيه (٤٢). ولو لم يكن الأمر كذلك افكان اجماع الناس ينعقد على نسبة الأفعال إلى أصحابها؟! «الوجدان يشهد والحس يشاهد أن الذى يرفع يده بالسيف ويضرب آخر فيقتله، هو الذى ضربه». ويقول الرائى والمخبر ان فلاناً قتل فلانا وضربه أو أعتدى عليه: فنسبة الأفعال إلى من صدرت منه من العباد مما لايحتاج إلى بحث أو نظر (٤٣).

هكذا يدلل الأستاذ الأمام على الحرية، وحرية الارادة بالتحديد، والتى بدونها لايمكن أن ندخل فى حيز العباد القادرين على أعمال العقل وأعمال الفكر الحر. أما الذين ينكرون أن يكون للأنسان حرية، ماعليهم الا أن يفكروا فى معنى الأوامر الآلهية: أفيعقل أن يكون لهذه الأوامر قيمة ما، اذا لم يمكن للانسان الاختيار فى أن يطيعها أو أن يعصيها؟! لقد قامت أحكام الشريعة جميعا على هذا الأصل. وهو أن الأنسان مسئول عما يفعل: «ولو كان فعل العبد ليس له لبطل تكليفه به: اذ لايعقل أن يطالب شخص بما لايقدر عليه وان يكلف بما لاأثر لارادته فيه» (٤٤). واذن فالوجدان والاجماع والعقل والشرع. كلها متفقة على نسبة أفعال الإنسان إليه. ولكن ليس هذا يعنى أن للإنسان حرية مطلقة كما يتوهم البعض: فحرية الاختيار لامتناهية ـ عند الله ـ الخالق الأوحد ولكنها متناهية عند الإنسان.

واستنادا إلى ماسبق عرضه يتأكد لنا أن الأستاذ الأمام قد ناصر حرية

الإرادة مناصرة متصلة لم تنقطع. وكثيرا مانهض محتجا على «الجبرين» القائلين بأننا لانستطيع أن نغير شيئاً مما كتب علينا في لوح القضاء المحتوم، ولذلك لافائدة من العمل والسعى، ومن الخير أن نسلم أمورنا إلى المقادير تصرفها دون أن نفرض على أنفسنا جهودا مقضيا عليها بالضياع. ويرد الأمام عليهم بقوله: «ان الله يأمرنا بأن نهمل واجباتنا بحجة التوكل عليه: فان مثل هذا لمن سخف الرأى ولايمكن أن ينجح الا قوم لا أخلاق لهم ولادين»! ويمضى الفيلسوف فى دفاعه عن الحرية وحملته على «الجبر» فيقول: ان جزءا من أعمالنا منسوب إلى الإرادة، وذلك مايسمى بـ «الكسب» وهو مناط الثواب والعقاب (٤٥).

ولاشك أن المنكرين لحرية الأفعال الانسانية يحتجون بالآية القرآنية: «والله خلقكم وماتعملون» وفسرونها على معنى أن الله خالق أعمال الناس. ولكن محمد عبده يلاحظ أن هذه الآية نفسها تقول «وماتعملون» فهى بذلك تفيد نسبة العمل إلى الإنسان ومهما يكن من طرافة النظرةعند الأستاذ الأمور فى هذا الوضع أو فى غيره فان هناك شيئا لاشك فيه، وهو أنه كان حريصا كل الحرص على أن يقيم فلسفة اسلامية قوية تدعو إلى تعاليم الحرية وتبث أخلاق الصبر والجهد والعمل فتوقظ العالم الاسلامى من حال النعاس والكساد والجمود. وتبعث فيه أملا كان من قبل حقيقة واقعة وتعيد إليه سابق مجده فى مجالات العلم والدين والأخلاق والاجتماع والسياسة والفلسفة جميعا.

٤ ـ أهمية التربية السياسية:

كان العصر الذى عاش فيه محمد عبده عصرا مليئا بالأحداث

مثيـر للخـواطـر، فلم يكن من شأنه أن يجعل الاعتزال فى غرفة المكتب أمـراً ميسـوراً، وقد نستطيع أن نرى فى السياسة مارأى أرسطو فى علم «مابعد الطبيعة» فنقل ان امتناع انسان عن الاشتغال بالسياسة هو اشتغال بها أيضا، والواقع أن الأستاذ الأمام على الرغم من حبه وايثاره لرسالته كأستاذ وكمرب للنفوس لم يكف قط عن ابداء رأيه فى المشكلات العصرية الكبرى سياسية كانت أو واجتماعية وربما كان فى السياسة عند بعض النـاس مايحفـز الهمة ويبعث النشاط. لقد كان محمد عبده أول الأمر نصيـرا لنظام ديمقراطى برلمانى: فقبيل الثورة العرابية أعلن الشيخ محمد عبده، بالاتفاق مع أصدقائه أنصار الجبهة الوطنية دعوته إلى تغيير النظام السياسى الذى كان قائما، وانشاء «جمهورية مصرية صغيرة»، ومحمد عبده نفسه هو الذى قام بتحرير برنامج «الحزب الوطنى» المصرى الذى أسس حوإلى عام ١٨٨٢.

غير أن تتابع الأحداث السياسية فى مصر لم يكن من شأنه أن يمكن الأستاذ الأمام من البقاء على آرائه الأولى. فمساوئ الحكومات، وجهل الشعب، والفوضى العقلية، والانحلال الأخلاقى الذى ساد البلاد عقب الاحتلال البريطانى، وانهيار سياسة جمال الأفغانى التى ترمى إلى تحرير الشعوب الاسلامية من نير الاستعمار الغربى، كل هذه التجارب الأليمة جعلت الفكر الوطنى يرى فى الأفق البعيد نموذجا آخر للحكم أكثر ملائمة لحال بلاده وأدنى إلى تحقيق آماله فى اصلاح أمرها. ومأأن أثبت الشيخ محمد عبده مبدأ واجب شرعا وعقلا حتى عالج الشكل الذى يتخذه ذلك المبدأ فى التنفيذ بين الحاكم والمحكوم. وهنا نرى أن محمد عبده وهو يطبق منهجه الذى يعتمد فيه أول مايعتمد على تتبع آثار السنة فى السلوك والعمل

من ناحية وعلى التحررمن الجمود والميل إلى التجديد من ناحية أخرى. يهمنا هنا أن نلاحظ أن محمد عبده قد استعان بمذهب المنفعة فى تطبيقه على أساس منفعة الأمة أو منفعة الجماعة لا الفرد (٤٦) مثلما مال إلى ذلك «جيرمى بنتام» فى انجلترا وهو يقود حركة الاصلاح فى آخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.

الا أن محمد عبده آمن ايمانا مطلقا بان الاصلاح الأخلاقى يجب أن يسبق الاصلاح السياسى، بل نستطيع أن نقول أنه لو أمكن اتمام الاصلاح الأخلاقى لاستغنينا عن كل اصلاح سياسى. وهنا تقوم المسألة التمهيدية التى ظلت شاغلة تفكير المفكر المصرى وهى التربية، ولاسيما التربية السياسية وغايتها اعداد جيل جديد، قادر على القيام بما يعهد إليه من بعث الروح فى المجتمع المصرى. فقد كان ذلك المجتمع مريضا، كان بناءه منهارا، ولذلك وجب تشييده على أسس جديدة متينة حيث كان الوقت الأعظم من وقته مكرسا للتعليم القوى والاصلاح كما يراه من خلال التربية السياسية للنشئ (٤٧).

ولقد أكد الأستاذ الأمام فى مذكراته عن الحركة العرابية أهمية التربية القومية ـ التربية السياسية ـ التى تقضى على أسباب التنافر والانقسام بين أهل الوطن الواحد وبث الثقة بأنفسهم وتعلمهم معنى المصلحة العامة وبذل التضحيات لخير الوطن: فقال: «كل أمة تفرق المطامع بين أفرادها، ويصرف كل منهم شأنه عن مجموعها، ويلهيهم العاجل عن الآجل، ويذهب بها الحاضر عن المستقبل، فلاسبيل للاعتماد عليها فى دفع غائل ولا فى مقاومة صائل، وعلى ولى أمرها أن يبتدئ فيها قبل كل عمل بتهذيبها واصلاح طباعها، حتى تنشأ فيها الثقة وتعلو منزلتها فى نظرها، ويغلب

لديها أمر عامتها على أمر خاصتها: عند ذلك تكون ينبوع سعادته فى السلم وسياجة المنيع لصد عدوه فى الحرب» (٤٨) وعلى الجملة كان الأستاذ الأمام فى آن واحد، عدوا للسيطرة الأوروبية، وعدوا لظلم الحكومات الشرقية ولاريب أن الوطنية المستنيرة العميقة البعيدة عن الديماجوجية السطحية العامية، هى الفكرة الموجهة لنشاطه السياسى كله. وقد كان الفيلسوف المصلح حقا أول مفكر فى مصر الحديثة، استطاع أن يمثل هذه الفكرة تمثيلا سليما.

كان الشيخ محمد عبده يرى أن تمثيل الشعب فى المجالس النيابية، على النمط المعروف فى البلاد، ليس له معنى الا اذا اجتمعت كل الأمة على غاية واحدة، وإلا إذا بذل المواطنون جهودهم فى سبيل المصلحة العامة. ومادامت الأمة ممزقة الأوصال، ومشتتة الأهواء، ومادامت أحزابها السياسية خاضعة فى تصرفاتها لمآربها الشخصية ومادام أفراد الطوائف المختلفة يعوزهم الوعى العام، فالتمثيل النيابى حديث خرافة ساقه الوهم المتقيد (٤٩).

مما سبق نرى أن محمد عبده اهتم اهتماما خاصا بالتربية والتعليم والتربية السياسية حيث قال: «وانما علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع نبدأ بترغيبها فى استشارة الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة وليس من المصلحة أن تفاجئ البلاد بأمر قبل أن تستعد له، فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد فيفسد المال ويقضى إلى الهلكة» (٥٠) وبلغ اهتمام محمد عبده بالتربية السياسية أنه عرض على الأفغانى أن يهجرا السياسة ويذهب إلى مجهل من

مجاهـل الأرض لايعرفهم فيه أحد ويختار من أهله عشرة غلمان من الأذكياء نربيهم على منهجنا. فاذا اتيح لكل منهم تربية عشرة آخرين لاتمضى بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد فى سبيل الاصلاح السياسى ولكن يرد عليه استاذه «انما أنت مثبط» (٥١) ولكن أسلوب محمد عبده فى التربية يعتمد على كراهية للسياسة.. وعدم الثقة فى الشعب والحل كما يتصوره يكمن فى أيدى حفنة من الأذكياء، وكأن النهوض بالبلاد والتقدم مرهون فى أيدى حفنة من الأذكياء ومادونهم فليحرقوا، ولقد وقع محمد عبده فى هذا الذلل نتيجة لكرهه للسياسة والسياسيين ولقد كان له موقف ضد الثورة العرابية ـ هو نفس موقف على مبارك من قبله ـ كرهه للعنف، والميل إلى الهدوء فى التغيير عدم تحبذ القوة المسلحة فى الدفاع عن الوطن ودرء الأخطار عنه، ومحاربة الاستعمار.

٥ ـ تطوير الأزهر:

لقد تقرر بحكم العرف والتقليد وحكم العقيدة والسمعة أن الأزهر صوت الأمة الذى يسمعه الحاكم الدخيل من المحكومين، وأنه ملاذ القوة الروحية فى نفوس أبناء الأمة، وفى نفوس الحاكمين الذين يدينون بعقيدتها، ومن لم يكن من أهل تلك العقيدة فقد يحسب لها حسابها الذى ينساه أخوانها فى الدين على الجهالة المطبقة أو مع هوى الساعة، وقد حسب له الفرنسيون هذا الحساب ونسيه أناس من أمراء المسلمين، ولكنه لم يضع قط كل الضياع فى وقت من الأوقات. ومن الواضح أن الجامع الأزهر انما استقرت له هذه المكانة فى العالم كله لأنه المدرسة الجامعة فى الرقعة الوسطى من العالم الاسلامى الفسيح من الشرق إلى الغرب، بين مدارس

بغداد فى الشرق ومدارس قرطبة فى الغرب (٥٢) وقد أفلت هذه المدارس حينا مع أفول الدولة العباسية وأفول الدولة الأموية وسائر الدول الأندلسية، وورثت الجامعة الأزهرية شهرتها جميعا كما ورثت القاهرة شهرة مصر القديمة بالعلوم.

والحقيقة التى لاجدال عليها أن دروس الأزهر يومئذ كانت مقصورة على قشور من علوم الفقه واللغة يتلقاها الطالب عن أستاذه ويعول فى تحصيلها على حفظ الذاكرة وقلما يطالبه أحد من أساتذته أو يطالب هو نفسه بوعيها وفهمها فهما حقيقيا. لقد كان التعليم والتعلم كلاهما فوضى لارقابة عليها لأحد، فلما دعا الأمر إلى اختيار طائفة من خريجى الأزهر لوظائف القضاء والتعليم رسمت شروط الامتحان ودرجات الاجازة على مثال الشهادات المدرسية التى كانت ترشح الحاصلين عليها من خريجى المدارس العصرية لوظائف الدولة. وقد كان الراغبون فى تغيير هذه الحالة غير قليلين. ولكنهم كانوا لايملكون سلطة التغيير أو يملكونها ويؤثرون أن يتمهلوا حتى يجئ طلب التغييرمن أهله، تجنبا لاثارة الشبهات بابتداع البدع واتباع دعاة الزندقة ـ أو الفرنجة ـ فى أمر المعهد الأكبر من معاهد الدين الحنيف.

ولقد دأب الشيخ علي الجهاد بعد عودته من المنفى، فحاول اصلاح الأزهر اصلاح يؤهله لأداء رسالته، كى يكون جامعة حقيقية تنشر العلم الصحيح الذى يعد الناشئين لأن يكونوا رجالا عاملين يفيدون بلادهم بمساعيهم فى بث العقائد الدينية الصحيحة والمعانى الأخلاقية السليمة، ومكافحة الخرافات والقضاء على الأباطيل (٥٣) وبهذه الروح سعى الشيخ إلى عصرنة الأزهر. ولقد رأى الشيخ أنه اذا انصلح الأزهر فقد انصلح المسلمون

فسعى جهده فى ذلك فاعترضته أناس من أهل المراتب يفضلون بقاء القديم على قدمه واستنصروا العامة عليه وغرسوا فى أذهانهم أن المفتى ذاهب بالمسلمين إلى مهاوى الضلال والبدع. فلم يهمه قولهم بعلمه أن ذلك نصيب أمثاله من قديم الزمان (٥٤) على أنه لم ينجح فى اصلاح الأزهر الا قليلا، ولكنه وضع الأساس ولابد من رجوع الأمة إلى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين فيكون الفضل له فى تأسيسها.

على أن الجانب الأعظم من عقلاء المسلمين وخاصتهم يرون رأيه فى اصلاح حالة الدين ورجاله. وربما سبقه كثيرون منهم إلى الشعور بحاجة المسلمين إلى ذلك ولاسيما المتخرجين بالعلوم العصرية من الناشئة المصرية ولكنهم لم يجرؤا على التصريح بأفكارهم فى غير المجتمعات الخصوصية. حتى لايتهمهم الناس بالمروق من الدين. فلما جاهر محمد عبده برأيه وافقوه وصاروا من مريديه ونصروه بألسنتهم وأقلامهم ـ فحاجة المسلمين إلى الاصلاح ليس هو أول من انتبه إليها ولكنه أول من جاهر بها ـ كما أن (مارتن لوثر) المصلح المسيحى ليس أول من انتبه لحاجة المسيحية إلى الاصلاح ولكنه أول من جاهر بها وأول من جاهد فى سبيلها وقد قام بجهاده لقيام السياسة بنصرته ـ وأما مصلح المسلمين فكانت السياسة ضده ـ لأنه كان ضدها ـ وانما حمله على تلك المجاهرة حرية ضميره وجسارته الأدبية ومنصبه الرفيع فى الافتاء المصرى، وعلو شأنه بين الأمة الاسلامية.

واستنادا إلى ذلك الفهم، يكاد ينعقد الاجماع على أن الروح التى سادت التعليم فى الأزهر عندئذ كانت روحا تقليدية ليس الغرض منها

البحث والاستقصاء رغبة فى تقدم العلوم التى تدرس فيه، بل غايتها على الأكثر تلقين هذه العلوم كما ذكرها السلف الصالح دون تغيير فيها أو انحراف عما قرروه أو حتى اجتهاد فيما قالوه. وكانت هناك عدة محاولات لاصلاح التعليم فى الأزهر، كان آخرها المحاولة التى جرت فى عهد الشيخ محمد المهدى العباسى شيخ الجامع الأزهر والصادر بها ارادة سنية بانفاذ قانون التدريس فى ٣ فبراير عام ١٨٧٢ (٥٥) وتم بواسطتها تنظيم الحصول على شهادة العالمية وتحديد درجات العلماء والعلوم التى يدرسها الطلاب(٥٦).

لقد بلور الشيخ محمد عبده أهدافه فى اصلاح الأزهر فى الآتى:

١ ـ تحديد مدة الدراسة بالأزهر:

كان من أول أبواب الاصلاح التى وجه الشيخ عنايته إليها هو تحديده مدة الدراسة فى الأزهر: فقد جرى العرف منذ زمان طويل أن ينفق المجاورون من أعمارهم الأعوام الطوال فى الأزهر، دون أن يجدوا من أولى الأمر أى رقابة على أعمالهم. وحدد القانون بدء السنة الدراسية وكذلك حدد نهايتها، كما حدد أيام العطلة والمسامحات وقد كانت الحال قبل ذلك بلا ضابط: فكان الشيخ والطلاب يمكنهم التغيب متى شاءوا فضلا عن تغيبهم أيام المسامحات الرسمية (٥٧).

٢ ـ الامتحانات ونظام التدريس:

اقترح محمد عبده أن تعقد لطلبة الأزهر امتحانات سنوية. ولم يكون ذلك النظام معروفا قبل ذلك فى الأزهر، بل لم يكن عدد من يمتحنون كل

عام يزيد على ستة. وهؤلاء كانوا يتقدمون إلى الامتحان، لا بحسب دورهم أو ذكاؤهم أو علمهم، بل بشفاعة الشفعاء والحاح الملحين. واقترح المشروع كذلك مكافأة الطلبة المتفوقين من بين الممتحنين. والغرض من ذلك هو بث روح التسابق فيهم وترغيبهم فى التحصيل (٥٨).

٣ ـ الغاء بعض الكتب القديمة:

وثالث الاصلاحات التى اقترحها الأستاذ الأمام لايقل عن سابقيه أهمية وأثرا وهو يقضى بالغاء دراسة بعض الكتب العقيمة – كالشروح والحواشى والتقارير ـ التى اعتاد المشايخ تلقينها للطلبة من غير فهم، وكان من شأنها أن تشوش عليهم موضوعات العلوم التى يدرسونها. واستعيض عن ذلك كله بكتب أنفع وأقرب إلى مدارك الطلاب.

٤ ـ تقسيم العلوم:

كان يرمى إلى تقسيم العلوم التى تدرس بالأزهر إلى علوم مقاصد وعلوم وسائل فأطيلت مدة الدراسة فى «علوم المقاصد»: كالتوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والأخلاق، أما «علوم الوسائل»: كالمنطق والنحو والبلاغة ومصطلح الحديث فقد ضم إليها الحساب والجبر وهذه العلوم بقسميها هى التى يلزم طلاب شهادة العالمية بأداء امتحان فيها (٥٩).

٥ ـ تدريس مواد جديدة:

اما الاصلاح الخامس فيقرر ادخال دروس ومحاضرات جديدة فى علوم التاريخ والتاريخ الطبيعى والرياضيات والجغرافيا والفلسفة والاجتماع وما

إلى ذلك من العلوم التي كان قد أهمل تدريسها بالأزهر حتى ذلك الحين(٦٠).

٦ ـ الرعاية الصحية والطبية:

وهي توفير الشروط الصحية، وتعيين طبيب وبناء مستشفى لطلبة العلم الفقراء ويلاحظ أن تلك الاصلاحات المتواضعة لم يستطيع محمد عبده أن ينفذها جميعها لمقاومة الشيوخ اياها، أما عن سوء قصد أو سوء فهم فضلا عن وقوف الخديوى نفسه حجر عثرة فى وجه المشروع انتقاما من محمد عبده. ولكن مانفذ من تلك الاصلاحات المقترحة لم يخل من أن يحمل شيئا طيبا: فقد شوهدت فى طلبة الأزهر اذ ذاك حماسة جديدة ودبت فيهم روح فتية، وشاعت عندهم رغبة التوسع فى التحصيل واستيعاب البرنامج التعليمى وميل إلى التجديد ورغبة فى معرفة العلوم العصرية.

اصلاح المساجد:

لم يتوقف نشاط الرجل عند اصلاح الأزهر فقط، بل امتد إلى اصلاح المساجد، فقد كان مشروعا من مشروعات الاصلاح الكثيرة التى عنى بها ذلك الرجل المغضوب عليه، لأنه لايترك موضعا للاصلاح بمكان يسند فيه إليه عمل، ولو كان من أعمال الاستشارة والمراجعة. لقد كان المفتى بحكم وظيفته عضوا فى المجلس الأعلى لديوان الأوقاف وكان عليها الاشراف على مساجد العبادة والتعليم فى الأقاليم. فكان أول مانظر فيه انشاء ادارة مستقلة بالديوان تسمى «ادارة المساجد» وتخصص لائحة لتعيين المدرسين فى

مساجد المدن والقرى التى تتسع لالقاء الدروس على أمثال الدروس العصرية بالجامعة الأزهرية، ولزم ممن ذلك أن ترصد النفقات لتدبير الوسائل الصحية فى المساجد ومايلحق بها من يصلحون للخطابة والتعليم ونشر التربية العصرية عن طريق الوعظ والارشاد، وأن ترفع اللائحة مكافآت الوعاظ من جنيه واحد أو جنيهين فى الشهر إلى المرتب الذى يناسب طبقة العلماء والمدرسين، واشتمل التقرير المتقدم إلى المجلس الأعلى لديوان المدارس على تفاصيل لهذه اللائحة ولائحة المساجد (٦١) تبسط الغاية من هذا المشروع لولاة الأمور فى البلاد. وهى تزويد البلاد بقوة من قوى التربية الاجتماعية واليقظة الوطنية، وتحقق للأمة مقصدا لايقل فى أثره الواسع عن أثر المدارس والجامعات العصرية.

واستشهادا بما سبق عرضه يتضح لنا أن المصلح الفيلسوف المستنير، لم يترك مجالا فى نواحى الحياة المعاشة الا وطرقه، فى محاولة تغييره وتطويره، ولم يتوقف على الرغم من اضطهاد العلماء التقليدى له، وكذلك لم يرتكن إلى مساعدات ولى الأمر فى سبيل تحقيق مشروعاته الاصلاحية، وبذلك يقف شامخا عملاقا، حرا، مستنيرا، أمام كل المتخلفين والرجعيين والتقليديين - دعاة ليس فى الإمكان ابدع مما كان - أن دعوات ومشروعات محمد عبده، وان لم تنل النصيب الأكبر من التنفيذ، الا أنها كانت بذورا فى أرض صالحة أنبتت بعد ذلك رجالا أقوياء عنداء فى سبيل الحق والحرية، وفى سبيل جعل الحياة أكثر تقدما وتنويرا، ومن هنا يحق للباحث أن يطلق عليه - أحد رواد حركة التنوير الفكرى فى مصر فى القرن التاسع عشر - ان لم يكن

أكثرهم استنارة وتعقلا، وسوف يعرض الباحث لرائد آخر فى هذه الحركة، وان كانت كل جهوده ومشاريعه وخططه تجنح نحو السياسة أكثر من جنوحه نحو التربية والتعليم، وان كان له فيها فضل يجب أن يذكر.



الهوامش والمصادر

١ - جرجى زيدان: بناة النهضة العربية، مرجع سابق، ص ٧٧ .

٢ - عثمان أمين، **رائد الفكر المصرى الامام، محمد عبده**، (القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٦٥)، ص ص ٣٣ - ٣٤ .

٣ - السيد محمد رشيد رضا، **تاريخ الأستاذ الامام جـ١** (القاهرة، مطبعة المنار، ١٩٣١)، ص ص ١٣٥ - ١٣٦ .

٤ - عبد الرحمن الرافعى، عصر اسماعيل، جـ١ ، مرجع سابق، ص ١٠٨ .

٥ - السيد محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الامام، جـ ١، مرجع سابق، ص ١٣٧ .

٦ - عباس محمود العقاد، **محمد عبده عبقرى الاصلاح والتعليم**، (أعلام العرب العدد ١ القاهرة، د.ت.)، ص ص ١٨٠ - ١٨١ .

٧ - عثمان أمين، رائد الفكر المصرى، مرجع سابق، ص ص ٥٥ - ٥٦ .

٨ - المرجع السابق، ص ٥٧ . .

٩ - محمد رشيد رضا، تاريخ الاستاذ الامام، جـ ١ ، مرجع سابق، ص ٩٤٦ .

١٠ - محمد رشيد رضا، **مجلة المنار، م٨**، (القاهرة ، مطبعة المنار، ١٩٠٥)، ص ٣٥٦ .

١١ - أحمد أمين، زعماء الاصلاح فى العصر الحديث، مرجع سابق، ص ٣٣٨ .

١٢ - محمد رشيد رضا، تاريخ الاستاذ الامام، جـ١ ، مرجع سابق، ص ص ٤١٥ - ٤١٦ .

١٣ - جرجى زيدان، بناة النهضة العربية، مرجع سابق، ص ٧٨ .

14- Albert Hourani, Op. Cit., p. 145.

١٥ ـ أحمد أمين، مرجع سابق، ص ٢٩٧ .

١٦ ـ رفعت السعيد، **الأساس الاجتماعى للثورة العرابية**، (القاهرة، مكتبة مدبولى ، ١٩٦٦)، ص ٨٨ .

١٧ ـ على الحديدى، **عبد الله النديم**، (سلسلة اعلام العرب، العدد٩، القاهرة، د.ت.)، ص ٤٢ .

١٨ ـ عباس العقاد، محمد عبده، مرجع سابق، ص ١٢٤ .

١٩ ـ رفعت السعيد، الأساس الاجتماعى للثورة العرابية، مرجع سابق، ص٨٩ .

٢٠ ـ عبد العزيز رفاعى، **فجر الحياة النيابية فى مصر الحديثة**، (القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، د.ت)، ص ٩١ .

٢١ ـ جرجى زيدان، **تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها الى اليوم**، (مطبعة المحروسة بمصر، ١٨٨٩)، ص ٢١٠ .

٢٢ ـ عباس محمود العقاد، محمد عبده، مرجع سابق، ص ١٣٥ .

٢٣ ـ جرجى زيدان: **تراجم مشاهير الشرق فى القرن ١٩، جـ١** (القاهرة،مطبعة المحروسة، ١٩١٠) ص ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

٢٤ ـ محمد رشيد رضا، تاريخ الاستاذ الامام، جـ ١، ص ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

٢٥ ـ عباس محمود العقاد، محمد عبده، مرجع سابق، ص ص ١٣٦ ـ ١٣٨ .

٢٦ ـ المرجع السابق، ص ١٣٨ .

٢٧ ـ عثمان أمين، رائد الفكر المصرى، مرجع سابق، ص ٨٧ .

٢٨ ـ عثمان أمين، **رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى**، (المكتبة الثقافية، العدد ٤٦ ، القاهرة، ١٩٦١)، ص ٦٨ .

٢٩ ـ عثماں أمیں، رائد الفكر المصرى، مرجع سابق، ص ٩٨ .

٣٠ ـ المرجع السابق، ص ٨٠

31- Albert Hourani, Op. Cit., pp.

٣٢ ـ محمد حسين هيكل، **مذكراتى فى السياسة المصرية**، جـ١ ، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧)، ص ٢٧ .

33- Albert Hourani, Op. Cit., p. 158

٣٤ ـ تشارلز آدمز، **الاسلام والتجديد فى مصر**، ترجمة: عباس محمود العقاد، (القاهرة، مطبعة نورى، ١٩٣٥)، ص ٣٢ .

٣٥ ـ محمد رشيد رضا، تاريخ الاستاذ الامام، جـ١ ، مرجع سابق، ص ٧٥٦ .

٣٦ـ المرجع السابق، جـ٢ ، ص ٥٠٩ .

٣٧ ـ المرجع السابق، جـ ٢ ، ص ص ١٣٦ ـ ١٤٢ .

٣٨ ـ المرجع السابق، جـ ٢ ، ص ص ١٣٣ ـ ١٣٦ .

٣٩ ـ عثمان أمين، رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى، مرجع سابق، ص٧٣ .

٤٠ ـ أحمد أمين، زعماء الاصلاح، مرجع سابق، ص ٣٤٤ .

٤١ ـ محمد عبده، **رسالة التوحيد**، (ط١ ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق، ١٨٧٩)، ص ٦٥ .

٤٢ ـ محمد عبده، **تفسير صورة العصر**، (القاهرة، مطبعة المنار، ١٩٢٦) ص ٤٥ .

٤٣ ـ المرجع السابق، ص ٤٦ .

٤٤ ـ عثمان أمين، رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى، ص ص ٧٣ ـ ٧٤ .

٤٥ ـ محمد عبد المعز نصر، **فى الفكر السياسى العربى والمجتمع**، (الإسكندرية، دار نشر الثقافة)، ص ١٨٣ .

46- Albert Hourani, Op. Cit., p. 158.

٤٧ ـ محمد رشيد رضا، تاريخ الاستاذ الامام، جـ١ ، مرجع سابق، ص ٢١٥ .

٤٨ ـ عثمان أمين، رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى، ص ٧٨ .

٤٩ ـ عباس العقاد، محمد عبده، مرجع سابق، ص ١٠٦ .

٥٠ ـ المرجع السابق، ص ٣٠٦ .

٥١ ـ عباس العقاد، محمد عبده، مرجع سابق، ص ٤٧ .

٥٢ ـ عثمان أمين، رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى، ص ٦٤ .

٥٣ ـ جرجى زيدان، بناة النهضة العربية، مرجع سابق، ص ٨٣ .

٥٤ ـ عبد المتعال الصعيدى، **تاريخ الاصلاح فى الأزهر**، (القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٤٣)، ص ٤٩ .

٥٥ ـ وزارة الاوقاف، **الازهر، تاريخه وتطوره**، (القاهرة، مطابع دار الشعب، ١٩٦٤)، ص ٢٤٦ .

٥٦ ـ محمد الأحمدى الظواهرى، **العلم والعلماء**، (القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٥)، ص ٧٠ .

٥٧ ـ عبد الكريم سلمان، **أعمال مجلس ادارة الأزهر**، (القاهرة، مطبعة المنار، ١٩٠٥)، ص ١٥ .

٥٨ ـ عثمان أمين، رائد الفكر المصرى، مرجع سابق، ص ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

٥٩ ـ عبد الكريم سلمان، أعمال مجلس ادارة الأزهر، مرجع سابق، ص ص ١٠٥ـ١٠٩ .

٦٠ ـ عباس محمود العقاد، محمد عبده عبقرى الاصلاح والتعليم، مرجع سابق، ص ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .



الفصل الرابع

مصطفى كامل
رائد الوطنية المصرية

- نشأته الوطنيه
- الظروف السياسية لنضاله الوطنى
- نضاله الوطنى
- نضاله التربوى





مصطفى كامل

(١٨٧٤ - ١٩٠٨م)



مصطفى كامل

«إن أمة دبت فيها روح الوطنية وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبدا»

(١٨٧٤-١٩٠٨)

أولا- نشأته الوطنية المستنيرة:

ولد مصطفى كامل بمدينة القاهرة فى ١٤ أغسطس عام ١٨٧٤، وهو ابن على أفندى محمد أحد خيار المهندسين الضباط. وقد حصل على الشهادة الابتدائية عام ١٨٨٧. ثم دخل بعد ذلك المدرسة التجهيزية «الخديوية» عام ١٨٨٧ [١] وقد ظل على صفاته التى لازمته فى التعليم الابتدائى من الجد والأكباب على الدرس والعمل، وظهرت مواهبه من الشجاعة والجرأة وقوة الذاكرة واستقلال الفكر وعلو النفس، فنال احترام الأساتذة والتلاميذ جميعا.

وتدل الشواهد والبيانات على أن نشأة مصطفى كامل الوطنية بدأت وهو فى المدرسة الثانوية، ونعنى بالنشأة الوطنية اتجاهه إلى العمل والجهاد فى سبيل حرية مصر واستقلالها. لقد بدأ يشعر وهو بعد فى السادسة عشرة من عمره أن عليه واجبا نحو وطنه يجب أن يؤديه، وظهر هذا الشعور أول ماظهر وهو فى المدرسة الخديوية. إذ أسس جمعية أدبية وطنية أسملها «جمعية الصليبة الأدبية» واختار لها أعضاء من بين أصدقائه فى المدرسة [٢] ومن ذلك الحين تعلقت نفسه بالوطنية والخطابة، فكان يقف فى الجمعية خطيبا مساء كل يوم جمعة مرتجلا ماتملى عليه البديهة من الخطب، وأول خطبة ألقاها كانت فى «فضل

الجمعيات فى العالم» وأخذ بعد ذلك يراسل الصحف والمجلات التى ظهرت حينذاك، معبرا عن حبه لوطنه، وأخلاصه الشديد تجاهه. وبذلك يتأكد لنا أن ميول واتجاهات مصطفى كامل الوطنية ظهرت وهو لم يزل بعد فى صباه.

تأثره بحركة التنوير المصرية:

يتمثل تأثر مصطفى كامل بحركة التنوير فى اتصاله ومعرفته بكل من على مبارك وزير المعارف وقتئذ، وتعرفه بعبد الله النديم «خطيب الثورة العرابية» وأحد رجالات التنوير فى عصره وكذلك تعرفه «بمدام جولييت آدم» وسفرياته العديدة إلى أوروبا وخصوصا فرنسا، هذا إلى جانب مراسلاته وكتاباته فى العديد من الصحف والمجلات المصرية والأوروبية، وتكوينه لجريدة «اللواء» التى صدرت باللغتين العربية والفرنسية، وسوف نعرض لكل ذلك فيما يلى:

(١) مصطفى كامل وعلى مبارك:

ذهب مصطفى كامل إلى وزير المعارف على مبارك، وكان قد رسب مع سائر تلاميذ السنة الأولى بالمدرسة التجهيزية، ماعدا طالبين اثنين، ذلك لأن الوزارة رفعت درجة النجاح إلى ١٦ درجة من ٢٠ درجة، وهى نسبة عالية وغير معهودة فى تلك الأيام، ولا فى أيامنا هذه، ولقد استقبله الوزير مندهشا ومشجعا معا، لأن منهج على مبارك فى التربية القومية ـ كما سبق ذكره ـ أن يشجع بل أن يجرئ الصغار على مجالسة الكبار والمحكومين على مخاطبة الحاكمين ولم يكن غريبا على هذا الرجل أن يحسن استقبال تلميذ وجد عند نفسه الشجاعة ليقصد بابه بغير حاجة إلى تحقيق، وقد سأل الوزير

مصطفى وهو يعلم أنه ابن استاذه، عن المشكلة التى جاء يشكو منها ببساطة تامة، وبغير المقدمات عرف الوزير أن الشكوى عادلة، وأن صاحبها محق فيها، ثم أراد أن يمتحن ذهن هذا الشاكى الجرئ فقال له: هب أننى لم استمع إلى شكواك، فماذا أنت صانع ؟! فقال له مصطفى مامعناه أنه وزملائه يفزعون إلى عدله من جوره. فقال له على مبارك وهو يخفى ابتسامة سرور: اذهب إلى أخوانك وبشرهم أن القرار ألغى وانصرف مصطفى كامل (٣) الذى ترافع فى أولى قضاياه فنجح فيها نجاحا باهرا، ولقد دفعه هذا إلى الجهارة دائما برأيه.

وفى عام ١٨٩١ بينما كان على مبارك يقوم بجولة تفتيشية فى المدارس، زار المدرسة الخديوية، وسأل مصطفى كامل عما ينوى عمله بعد تخرجه، فأجابه الطالب النابه بتؤده «اننى استنتجت مما كان يرويه لى المرحوم والدى من احاديث كبار الرجال ومادرسته على يد أستاذى فى التاريخ من سير الفاتحين الأبطال مـأيقنت معه أن أعظم الرجال شأنا من يحرر بلاده وينقذ أمته من رتبة الذل والاسترقاق. وأنا أطمع أن أكون ذلك المحرر الذى يكتب ويخطب ويجاهد فى تحرير وطنه من الذل، ولقد سر ناظر المعارف من هذا الرد البليغ وقال له: يسرنى كثيرا أن أمنحك لقب «امرؤ القيس» ايذانا بنجابتك وبلاغتك» (٤) وشرع على مبارك منذ هذا إليوم بتعهده بنصائحه وكثيرا مادعاه إلى منزله لينير عقله ببعض مسائل أدبية وعلمية، وليقدمه إلى زواره من العلماء والساسة والصحفيين الذين كانوا يعجبون بذكاء هذا المواطن المستنير الصغير، الطامح إلى تغيير وطنه وتحريره من الاستعمار.

أما الحادثة الثانية : فى تعرف مصطفى كامل بعلى مبارك فقد كانت

عدوانا وظلما وقع على مصطفى كامل، حيث بدرت من أحد التلاميذ وهو وقوف صفوفا فى (حوش) المدرسة عبارة نابية فحسب الضابط الذى ينادى أسماء التلاميذ الذين وقعت عليهم جزاءات أن مصطفى كامل هو قائلها فجال بين الصفوف، حتى وقف أمام مصطفى كامل فضربه بعصا على ذراعه إليسرى ضربة مؤلمة، ثم أتبع ذلك بشتمة شتما قارسا وبصوت عال سمعه كل التلاميذ وقد احتج التلاميذ على هذا الظلم الصارخ لأن مصطفى كان آخر من يرتكب هذا الخطأ وكان العقاب قاسيا ومهينا فى وقت واحد. فقصد من فوره وزارة المعارف وروى للوزير ماحدث، فغضب الوزير لهذا المسلك من الضابط غضبا شديدا، فقد كان يكره من كل قلبه أن يعامل التلاميذ بالقسوة التى تقذف فى قلوبهم الخوف وتحرمهم الشجاعة وتخرجهم منذ نعومة أظافرهم اتباعا للسلطة، يتقون غضبا ولو كان جائرا، واعتبر الوزير أن هذه فرصة لابد أن ينتهزها ليلقى من خلالها درسا. وذهب بعربته إلى المدرسة وبصحبته مصطفى كامل، فلما وصلت العربة إلى باب المدرسة نزل الوزير والتلميذ على صورة لم تشهدها مدارس مصر من قبل ولا من بعد. الوزير الكبير الخطير والتلميذ الناشئ المجهول. الواحد بيد الآخر، حتى دخل الوزير على ناظر المدرسة وكشف عن موضوع الضربة على ذراع مصطفى، ثم أمر بأن يصطف التلاميذ فى (حوش) المدرسة، فسألهم الوزير عن حقيقة ماوقع فشهدوا بأن مصطفى لم يبالغ ولم يرو إلا الواقع، فدعا الضابط وأفهمه سوء مسلكه وأفهمه أنه سيصدر قراراً بفصله (٤) لأن هذا الاندفاع ليس سمة المربين والاعتداء على التلاميذ بالضرب والسب المهين بغير «تثبت» يعلم الأولاد قبول الظلم والطاعة العمياء لأولى الأمر.وبذلك نلاحظ كيف تأثر مصطفى بالمعلم والمربى على مبارك.

(٢) مصطفى كامل وعبد الله النديم:

عاد السيد عبد الله النديم إلى مصر من منفاه عام ١٨٩٥، فبعث مجيئه الحماس فى نفوس الشبيبة المصرية، وعودة روح النضال إليهم (٥) ولقد اتصل به مصطفى كامل، وعرف من أحاديثه أسرارالثورة العرابية، اذ كان خطيبها وأحد كبار زعمائها، عرف منه حوادث الثورة على حقيقتها، وأدرك أسباب اخفاقها وهزيمتها، اذا كان يعد نفسه لزعامة الحركة الاستقلالية، فان احاديث النديم قد أفادته كثيرا فى تعرف مواطن الخطأ وأسباب الأخفاق فى الثورة العرابية فتجنبها فى جهاده ـ كما عرف شيئا كثيرا من دسائس السياسة الانجليزية ـ تلك الدسائس التى كان لها دخل كبير فى اخفاق الثورة ووقوع الاحتلال (٦) ولقد تجنب مصطفى كامل أخطاء العرابيين، فلم يفكر فى اتخاذ الجيش أداة للحركة السياسية بل كان يعتمد على قوة الرأى العام وتربية الشعب التربية الوطنية والأخلاقية اذ علم أن اصطدام العرابيين بالخديوى توفيق قد مكن للدسائس الانجليزية من أن توقع الفرقة والانقسام فى مصر، فأنه نأى عن هذه السياسة، وسلك بالحركة الوطنية سبيل التفاهم مع عباس الثانى، وهكذا كانت أخطاء الثورة العرابية درسا لباعث الحركة الوطنية جنبه مواقع الخيبة والاخفاق فى الجهاد والنضال الوطنى لتحرير البلاد والعمل على استقلال ارادتها.

هكذا تعلم مصطفى كامل وتتملذ على يد النديم الخطيب والكاتب والشاعر والزجال والصحفى الذى سبق الثورة العرابية فى النضال السياسى، ثم صاحبها، يخطب لها وينشر الصحف حتى اذا ماأخفقت لم يسلم نفسه للغاصب الأجنبى ولا للحاكم المصرى، وانما ماتوجبه الفطرة السليمة فقد

اختـفى حتى هدأت الفـتنة، وذهب الروع، واطمـأن الحكام الجـدد نوعـا، فخرج لا ليلتمس جاها، ولا ليخطب ودا، ليستجم قليلا ثم يعاود النفخ ـ فى حذر واتئاد أول الأمر ـ فى نار الثورة تحت رمادها. ولقد اختفى النديم تسع سنوات والحكومة تبذل أقصى الجهد لوضع إليد عليه، حتى عثرت عليه فى ناحية السنطة بمحافظة الغربية فساقته الشرطة بغير اهانة، إلى وكيل النيابة، «قاسم أمين» فأحسن استقباله، وطمأنه وداوم السؤال عنه، وأخرج النديم جريدته «الأستاذ» وتداولتها الأيدى، وقرأها مصطفى كامل، وسعى إلى صاحب «الأستاذ» فاتخذه أستاذا، ولما أصدر مصطفى كامل مجلة «المدرسة» أحسنت استقبالها جريدة «الأستاذ» فى الثامن والعشرين من فبراير عام ١٨٩٣ ، ونوهت بها ، بعد عشرة أيام من صدورها، ولو بقى النديم فى مصر لاستعان به مصطفى كامل فى اجتماعاته ولاستكتبه فى جرائده، ولكن اللورد كرومر لم يطق حيوية النديم وقسوة لسانه أكثر من سنتين ثم نفاه فى ١٣ يونية عام ١٨٩٣ فغادر النديم بلاده ولم يعد إليها فقد لقى ربه فى تركيا (٧) وبذلك تعلم مصطفى فن الصحافة والكتابة الصحفية من رائدها الأول النديم.

ويتضح مما سبق أن اتصال مصطفى كامل بعبد الله النديم كان له أكثر من معنى وكان أجل هذه المعانى وأسماها اتصال الثورات، وانتقال الشعلة من يد إلى يد ومن جيل إلى جيل، لاتخبو ولاتسقط، فقد كان مصطفى كامل تجسيدا لروح الثورة الحقيقية فى حركة عرابى، التقطها من أعظم ثوارها عبد الله النديم.

(٣) مصطفى كامل ومدام جولييت آدم:

ان تعرف مصطفى كامل إلى مدام جولييت آدم عام ١٨٩٥ هو حادث مهم – فى حياته السياسية والقومية ـ فان مدام آدم هى من أعظم شخصيات فرنسا فى عالم الوطنية والسياسة والآدب، وهى الكاتبة الكبيرة ذات الشهرة العظيمة والنفوذ الأدبى فى فرنسا، وكان مشاهير الرجال من معظم نواحى الأرض يرحلون إليها، ويجتمع بدارها العلماء والأدباء وكبار القوم وملوك الشعر والأدب والسياسة، وقد وضعت عام ١٩٢٢ كتابا قيما عن مصر أسمته (انجلترا فى مصر) وهو من خير ماألف فى المسألة المصرية [٨] ولقد زرت مدام آدم مصر سنة ١٩٠٤ ملبية دعوة مصطفى كامل فاستقبلها بالحفاوة والاكرام، لما بذلته تجاه القضية المصرية، ولما قدمته لمصطفى كامل من عون أدبى ومعنوى. فلقد ساعدته على الكتابة فى الصحف الفرنسية، وقدمته إلى العالم الغربى، فتفتح عقله واستنار فكره وعلمه بتعرفه إلى مدام آدم ولولاها لما استطاع أن يدافع عن القضية المصرية فى العالم الغربى، حيث أنه لم يكن معروفا لأحد هناك، فعرفته برجالات السياسة والصحافة والأدب والفكر فكانت النقطة التى انطلق منها مصطفى كامل للعمل السياسى خارج حدود مصر، وأصبحت القضية المصرية على كل لسان فى دول الغرب.

(٤) سفرياته العديدة الى فرنسا وأوروبا:

سافر مصطفى كامل لأول مرة إلى أوروبا فى ٢١ يونيو سنة ١٨٩٢م ليؤدى امتحان السنة الأولى بكلية الحقوق بباريس، وقد كانت هذه المرحلة فرصة سنحت له ليتزيد من معارفه ويكتسب من مشاهداته فى بلاد الحضارة

والوطنيـة. ولم يكن همـه بعـد أن يتـفـرغ من دراستـه كل يوم الا أن يزور المكتبات والمعاهد أو يحادث دوى الرأى فيما يتعلق بشئون مصر (٩). ولقد افاد مصطفى كامل كثيرا من ذهابه إلى أوروبا عامة وفرنسا خاصة، فان هذه السياحة التعليميـة قد فتقـت ذهنـه وعلمته من شئون الأمم والجماعات مالـم يكـن يعلم، وعرف فيها أوساطا لم يكن يعرفها، واتصل بشخصيات لم يكـن ليتـصـل بهـا لو بقى فى مـصـر، وكـانت هذه الرحلة باكـورة سياحاتـه فى أوروبـا التى رفعت شأنه فى ميدان الجهـاد القومى وجعلت اسمـه عإلـيا، وخدم بها القضية المصرية أعظم الخدمات، اذ نقلها إلى أذهـان وهيئـات كـانت مـجـهـولة فـيـهـا، ولاشك أن اتصـاله بالأسـاتذة والصحفيين الفرنسيين قد أفاده كثيرا من الوجهة العلمية والمعنوية، فان وطنية الشعب الفرنسى هى بلا مراد قدوة للشعوب التى تريد أن تحيا حياة الحرية والمساواة والأخاء.

وارتكانا إلى هذا الفـهـم يتـضح أن بواكـيـر التـجـديد والتنوير فى فكر مصطفى كامل كانت لها جذورها فى تعرفه بعلى مبارك وتلمذته على يد عبد الله النديم وكذا تعرفه بمدام آدم وسفرياته العديدة إلى فرنسا، فقد ساهمت كل هذه العوامل المختلفة فى انارة فكر هذا الرجل، الذى وهب حياته للقضـية المصرية، ونصب نفسه محاميا للدفاع عنها فى الداخل والخارج ولايمكن فهم فكر الرجل دون الرجوع إلى الجذور التى نبت منها: فعلى مبارك والنديم هم من رجالات الفكر والاستنارة فى مصر ولقد عرضنا لعلى مبارك، وكذلك النديم لايقل شأنا ولا أهمية فى مجال الصحافة الوطنية التى بذلت قصارى الجهد فى سبيل مقاومة الاحتلال البريطانى ومن ذلك كله فمصطفى كامل متأثر بحركة التنوير تأثرا واضحا فى فكره،

والذى ساهم فى ذلك أيضا سفرياته إلى فرنسا وتعرفه على الفكر السياسى الفرنسى والأوربى حينذاك.

ثانيا ـ الظروف السياسية لنضاله الوطنى:

عندما احتل الانجليز البلاد كانت رغبة المصريين جميعا من غير شك هى التخلص من هذا الاحتلال، ولقد قامت وراء ذلك حركة وطنية مستنيرة تريد دفع هذا البلاء عن البلاد والسعى إلى استقلالها ، بيد أن الوسائل والطرق قد اختلفت فى هذا السبيل، فقد كان هناك اتجاه نحو مهادنة المحتلين مع محاولة الحصول على مايمكن الحصول عليه منهم بالتدريج ووجد اتجاه آخر مضمونة أن يقوم التعاون مع الخديوى فى سبيل التخلص من المحتلين ووجد اتجاه ثالث هو الاعتماد على العلاقة العثمانية والدولة العثمانية للتخلص من الاحتلال. ولقد كان هناك اتجاه رابع نحو الاعتماد على فرنسا للتخلص من انجلترا (١٠). ولاشك أنه مع اختلاف الوسائل والطرق والآراء كانت الرغبة المتأججة فى صدور المصريين هى التخلص من المستعمر الأجنبى صاحب الجيش المحتل وصاحب السلطة النافذة والذى له فى كل وزارة مستشار وفى كل ادارة موظفون وفى كل مسألة رأيه النافذ دون اعتراض والذى سار فى اتجاه تركيز كل السلطات بين يديه وماعلى الموظفين والوزراء والخديوى الا السمع والطاعة العمياء وأصبح المعتمد البريطانى فى مصر هو الملك المتوج وصاحب السلطة الفعلية فى البلاد وأصبح واضحا أنه ليس للوزير ولا الموظف المصرى رأى الا مارأى المستشار.. ومايأمر به المعتمد ومايأصدرته وزارة الخارجية من تعليمات وأوامر.

ولقد مضى على الاحتلال البريطانى نحو تسع سنوات كانت سنوات يأس وقنوط واستسلام من جانب الأمة المصرية، كما كانت عهد طغيان وجبروت من جانب الاحتلال البريطانى. فالثورة العرابية بما انتهت إليه من الأخفاق والهزيمة فى عام ١٨٨٢ قد أثرت فى حالة الأمة المعنوية تأثيرا سيئا. لأن اخفاق الثورات فى ذاته يبعث إليأس فى النفوس، حيث أن الثورة التى قامت فى الأصل لانالة البلاد حريتها واستقلالها السياسى قد انتهت بالعكس بفقدان هذه الحرية ثم بفقدان الاستقلال الذى كانت تتمتع به من قبل (١١) مضافا إليه ذلك مابدا من زعماء الثورة العرابية من ضعف وتسليم فى ميدان الجهاد. وتنصلهم من تبعات الثورة التى اقتادوا زمامها والتجاء معظمهم إلى الانجليز يستجدون منهم الصفح والمعونة، وماانتهى إليه أمرهم من النفى والنسيان والحرمان السياسى، ولقد أدى كل ذلك إلى تسرب إليأس فى النفوس فنهاية الثورة العرابية كانت من أسباب انحلال المقاومة الأهلية ـ الشعبية ـ فى أوائل عهد الاحتلال البريطانى، فان روح الخضوع والاستسلام قد تسربت من نفوس الزعماء إلى نفوس الأمة، فركنت إلى الإذعان، وظلت هذه الروح غالبة على الأمة سنوات عديدة، حتى بعث فيها مصطفى كامل روح الجهاد والنضال الوطنى من جديد.

ولقد شهدت البلاد فى هذه السنوات التواء السياسة البريطانية، ونقضها لمواعيدها فى الجلاء، كما شهدت أيضا جمود الدول الأوربية ازاء المسألة المصرية وتركها انجلترا تعبث باستقلال مصر وحقوقها. وشهدت تهدم حرم الأمبراطورية المصرية الواسعة الأرجاء التى أسستها فى السودان، ورأى الكوارث والهزائم تصيب جيشها، شهدت خضوع الحكومة المصرية لأوامر

القنصل البريطاني العام، كما شهدت الغاء الجيش المصرى، وتأليف جيش جديد هزيل كبار ضباطه من البريطانيين، وشهدت النفوذ البريطانى يتغلغل فى شئون الحكومة كافة، من سياسية وحربية ومإلية وتشريعية وادارية، وشهدت الغاء الدستور الذى نالته عام ١٨٨٢ وتأليف هيئة شورية لاحول لها ولاقوة، وشهدت نوعان من الحماية مضروبان على مصر، دون أن تعرف لها أساسا ولاحدودا، ولاقواعد ولاوقتا محددا، ثم شهدت فوق ذلك كله استسلام رجالات مصر لارادة المعتمد البريطانى، وتقرب أكثرهم إليه، والتماسهم الزلفى لديه.

وفوق ذلك كله كان الخديو توفيق يتولى مسند الخديوية مذعنا للسيطرة البريطانية لايرد للمعتمد البريطانى «اللورد كرومر» طلبا، وقد أضفى على الأداة الحكومية روح الاستسلام لارادة الانجليز، واللورد كرومر هو صاحب الأمر والنهى فى شئون الحكومة، يتدخل فى كل وزارة بواسطة الموظفين الانجليز الذين كانوا على رأس المصالح المهمة، فالسردار والضباط البريطانيون كانوا على رأس الجيش والبوليس أمرة المفتش البريطانى العام، والمإلية فى يد المستشار المإلى والأشغال فى يد وكيل الوزارة البريطانى، والحقانية منذ عام ١٨٩١ م فى يد المستشار القضائى وكان يتولى الوزارة فى ذلك الحين عام ١٨٩٠م، رياض باشا، وفى عهده استمر النفوذ البريطانى يتغلغل فى دوائر الحكومة، ثم استقال فى مايو عام ١٨٩١م، وخلفه فى رياسة الوزارة مصطفى فهمى باشا، وهو أكثر الوزراء خضوعا للاحتلال البريطانى واستسلاما له، وليس فى البلاد هيئة نيابية تمثل سلطة الأمة، بل ان بها المجلس المعروف «بمجلس شورى القوانين»، ولم يكن يسمع له صوت فى الشئون العامة[١٢] والصحافة اما موإلية

للحكومة أو ضعيفة فاترة إزاء السيطرة البريطانية وجميع الأمة تحت تأثير هزيمة الثورة العرابية وخضوع الحكومة للسياسة البريطانية، منصرفة عن الكفاح والجهاد الوطنى.

كانت هذه هى حالة البلاد والوزارات بها، فى أثناء الاحتلال البريطانى ولقد كان نصيب وزارة المعارف حينذاك أكثر مما سبق، حيث تركت بغير وزير وضمت إلى نظارة الاشغال حيث كان يذهب إليها ناظر الاشغال فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ليوقع بعض الأوراق ولقد توطدت سلطة السكرتير العمومى البريطانى فى ديوان المعارف إلى حد بعيد وأصبح الآمر الناهى فبسط نفوذه على الموظفين وأصبحوا لايعرفون لأحد سلطانا غير سلطانه (١٣) وصار يعاملهم بمنتهى الشدة وأصبح النظار فى المدارس والمفتشون يرهبونه كل الرهبة لأنه اذا رضى عن أحدهم رفعه إلى أعلى عليين وان غضب على أحدهم حل به الذل والهوان ولم يكن يسمح لأحد منهم أن يناقشه فى أحد من الأمور مهما كان خاطئا أو مخالفا فيسمع ويطيع من غير أن يبدى أى اعتراض أو حتى فى وجهة نظر (١٤) ولما كان الأمر كذلك، وهذه هى حالة البلاد وحال نظارتها وموظفيها، فقد أصبح وجود وعى قومى مستنير ضرورة لامناص منها لتطهير حال البلاد والدفاع عن حريتها وسيادتها. ولقد منى الله هذه الأمة مصطفى كامل فكان بمثابة الشرارة التى أشعلت النا ر فى الهشيم وأخذ الوعى القومى يظهر فى الأفق، وأخذت مقاومة الاحتلال مكانتها فى صدور الأمة المصرية. وبهذا فان الظروف السياسية التى كانت موجودة هيأت المجال لنضال مصطفى كامل.

ثالثا: نضاله الوطنى:

لاشك أن مصطفى كامل لم يستفد من عبرة الثورة العرابية على الرغم من لقائه للنديم ورغم أنه عرف منه حوادث الثورة وأدرك أسباب اخفاقها وهزيمتها لتجنبها فى جهاده ذلك أن مفهوم مصطفى كامل للوطنية كان مفهوما فكريا صرفا جعله ينظر إلى الحركة الوطنية على أنها دفاع محام عن قضية وليست نضالا لشعب حقق ثورة فعلية كثورة عرابى، من أجل هذا اتسمت الحركة الوطنية التى قادها بطابع القومية العاطفية لطوائف المثقفين التى تزكيها مشاعره وحماسه ومواهبه الشخصية أكثر مما يسندها تحرك الجموع، وقد يكون للظروف دخل كبير بعد أن فرض الاحتلال وجوده فرضا نهائيا وكتم أنفاس الناس ـ ورغم هذا فلا انكار ـ أن مصطفى كامل لم يكن قبل المراحل الأولى من جهاده ليتبين قوة الروح الوطنية الكامنة فى جموع الشعب المصرى، بل اندفع فى حماسه وعشقه العاطفى واخلاصه الجارف يترنم بالوطن فى تجريد تام «ان روحى تتغذى من حب الوطن وبغيره لاأستطيع الحياة، اذ لاقيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة حتى فى شقائه لايجد الانسان القوة والأمل إلا فى هذا الحب» (١٥).

وبذلك لم يتح هذا المفهوم المجرد للحركة الوطنية فضلا عن فورة الشباب وحماسه فرصة كافية أمام مصطفى كامل ليبنى جهاده على أسس متكاملة النضوج، فقد شرع فى جهاده مفترض من مبدأ الامر فشل الثورة العرابية واستسلام الشعب نهائيا للاحتلال. ولهذا نصب من نفسه رسولا للوطنية يرشد الأمة إلى المثل العليا فى حب الوطن والاخلاص له، ويعتمد

على قوة الرأى العام وتربية الشعب تربية وطنية. واذا علم أن اصطدام العرابيين بالخديوى توفيق قد مكن للدسائس الانجليزية من أن توقع الفرقة والانقسام فى مصر؛ فانه نأى عن هذه الحركة السياسية الخرقاء وسلك بالحركة الوطنية سبيل التفاهم مع الخديوى عباس الثانى.

ولاشك أن ظروف البلاد كانت تتطلب بادئ الأمر ايقاظ النفوس وبث الروح الخابية، ولكن بتجربة الثورة العرابية وموقف الخديوية منها كانت بالمثل توجب الوعى بحقيقة موقفهم، وهذا مالم ينتبه مصطفى كامل إليه إلا متأخرا. وقد يتبادر إلى الأذهان سؤال: ماذا كان يمكن عمله والاحتلال فى تجبره كان يتطلب التحالف ضده حتى مع الخديوى!؟

وبالطبع لا أنكار فى قيام مثل هذه الظروف ولا انكار فى الدور الذى لعبه مصطفى كامل فى ايقاظ وبعث الحركة الوطنية أيامها. وانما الذى نحب أن نسجله أن مصطفى كامل وقع فى البداية فى أخطاء جاءت نتيجة لأنه أقام دعوته على أغفال حقيقة ثابتة راسخة كان يجب أن يبنى عليها أساس جهاده، وتلك الحقيقة هى أن الجهاد الوطنى حركة تستند إلى المجموع وليست مجرد دعوة مثإلية خالصة. وهذا هو الشئ الذى أدركه على مدار الأحداث التى خاض غمارها على مدى كفاحه القصير بل وبفضل هذا الكفاح. كان ذلك أثر الحفاوة التى لقيها من أهل الأسكندرية بعد عودته إلى مصر وخطبته فيهم حيث وجه إليهم خطابا نشر فى المؤيد بتاريخ ١٠ مارس ١٨٩٦ قال فيه: «ومامثلى أمامكم ومثلنا جميعا أمام الوطن العزيز الا كمثل رجل واحد وجد أمه عليلة سقيمة، فأحس من نفسه الحزن والشفقة عليها فقام مناديا اخوانه للعمل معه لشفاء علتها...»(١٦)

كان فى البداية رسولا ومرشدا. فلما خطب عام ١٩٠٧ فى نفس المدينة خطبته التى نادى فيها بأن الجلاء هو الأساس.. قال: «أن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة الروح الوطنية فى الشعب المصرى»(١٧).

وارتكانا إلى هذ الفهم يتضح أن مصطفى كامل وصل إلى هذه الحقيقة بعد قرابة عشرة أعوام من الجهاد المتصل. والذى لاشك فيه أن جهاد مصطفى كامل إنما كان بلورة للفكرة الوطنية التى نبتت منذ نهاية عهد المماليك وتطور بها فى مدلولها الفكرى رفاعة الطهطاوى والكتاب العرابيين بعد ذلك (١٨). فلما جاء هو التقط الشعلة الخابية ورفعها عالية لتلتهب. وتنير الطريق أمام الأجيال التى تلته. وهكذا يستطيع الباحث أن يقرر أن هبة مصطفى كامل لم تكن الا نقطة الالتقاء التى انتهت عندها الثورة العرابية. وكان حتما أن تبدأ منها أو بعدها مباشرة ثورة جديدة وقعت متأخرة فى تقدير المصريين والأحداث والتطور هى ثورة ١٩١٩ ولو قدر أن أقام مصطفى كامل أسس جهاده على ضوء التجربة الضخمة التى أثبتتها الثورة العرابية – رغم ماأحاطه من ظروف تاريخية قاهرة لكان لتوقيته شأن آخر ـ على الأقل كان يستطيع تلافى الأخطاء التى اعانه اخلاصه على تلافيها . ولكن بعد وقوعها وهذه الأخطاء تتمثل فى موقفه من الخديوى ومن فرنسا:

(١) موقفه من الخديوى:

كان الخديوى عباس الثانى فى مبدأ أمره يعادى الانجليز المحتلين – لمنافستهم له فى حكم البلاد ـ وقد كان يلجأ فى مقاومته إلى التقرب

السافر من الحركة الوطنية، حتى لقد استند مصطفى كامل فى أول ظهوره على مؤازرته. وكانت هذه الخطة من جانب مصطفى كامل يقصد بها تجنب أخطاء الزعماء العرابيين فى التفرقة بين الأمة والخديوى الأمر الذى حاول مصطفى كامل أن يتلافاه كمبدأ أساسى لبعث الحركة الوطنية ولكن حين وقعت حادثة فاشودة بدأ الخديوى يتجنب الاحتلال وقد ضعف أمله فى الجلاء. وبعد أن تم الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ ظهر انحياز الخديوى بشكل واضح إلى الانجليز واضطر مصطفى كامل إلى تغيير موقفه وقطع علاقته به (١٩). ولما استقال اللورد كرومر اشتد انحياز الخديوى إلى السياسة البريطانية حتى لقد عرض مقاسمة المعتمد البريطانى فى حكم البلاد حكما مطلقا فلم يحجم مصطفى كامل نتيجة اخلاصه الوطنى من الجهر بعدواته: «ان مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الباب العالى» (٢٠). هذا هو الدرس الذى لم يعه مصطفى كامل الا بممارسة الجهاد مع أنه كان أكبر درس نطقت به أحداث الثورة العرابية.

(٢) موقفه من فرنسا:

أما سياسته بإزاء فرنسا فقد رسم دعوته على اساس توقع تدخلها لصالح مصر فظل يأمل فى مقاومتها حتى وقعت حادثة فاشودة وتراخت فرنسا أمام انجلترا وهنا تحول يطعن فى سياستها حيث كتب فى اللواء عام ١٩٠٠ «اننا انتقدنا دائما السياسة الفرنسية لولا هذه السياسة العوجاء لما كانت انجلترا فى مصر، ولما كنا فيما نحن فيه» (٢١) إلى هذا الحد كان مصطفى كامل يعلق الأمل على معونة فرنسا متأثرا فى ذلك تأثيرا مثاليا صرفا بما انبتته ثورة الحرية والاخاء والمساواة فى عقول المثقفين وافهام المفكرين الذين

قبله والذين عاصروه لكن ماأن تم ابرام الاتفاقية الودية التى اقتسمت فرنسا بمقتضاها عام ١٩٠٤ النفوذ مع انجلترا على أملاك تركيا فى الشرق الأوسط حتى ارتد إلى الجوهر الذى كان لابد أن يقيم عليه دعوته من الأصل «أن الأمم لاتنهض الا بنفسها ولاتسترد استقلالها الا بجهودها الذاتية» وهذا فى الحق درس آخركان يمكن أن يفيده مصطفى كامل من الثورة العرابية لو أنه وعاها وعيا حقيقيا، فليس بخاف أن موقف ديليسبس مع العرابيين وسماحة للإنجليز بغزو البلاد من السويس رغم حيدة القناة كان صورة عملية مصغرة للاتفاقية الودية التى عقدت بعد سنوات بين القنصلين الفرنسى والانجليزى.

وعلى الرغم من أن مصطفى كامل لم يكن يطلب من فرنسا أن تشن الحرب على انجلترا فى فاشودة، ولكن كان الأمل معقودا فى أن تظل فيها إلى أن تتم تسوية القضية المصرية. «على كل فان موقف فرنسا كان مخيبا لآمال مصر» (٢٢) وعدا هذا الأخطاء التى وقع فيها مصطفى كامل، فليس من شك فى أن جهاده كان نقطة الارتكاز الضخمة التى اقيمت عليها مبادئ الحركة الوطنية ودعوته هى الجذع الذى نمت حوله الأغصان التى اينعت خلال السنين التالية من سنى نضالنا الوطنى وعلى حد ماارتآه هو نفسه ببصيرة نافذة «أنا لو يخطفنا الموت من هذه الديار واحدا بعد واحد لكان آخر كلماته لمن بعدنا: كونوا أسعد حظا منا وليبارك الله فيكم وليجعل الفوز على أيديكم ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس.. بلادى.. بلادى .. لك حبى وفؤادى.. لك حياتى ووجودى.. لك دمى ونفسى.. لك عقلى ولسانى.. لك لبى وجنانى.. فأنت الحياة ولاحياة الا بك يامصر» (٢٣) تلك

كانت دعواه وتلك كانت مأساته أيضا. فقد أقام نضاله على أساس الدفاع عن قضية عادلة.. وليس على أساس النضال من أجل وطن محتل وشعب لايخبو له نضال أبد الدهر.

مصطفى كامل واللواء:

صدر العدد الأول من اللواء فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ فى أربع صفحات، وفى أواخر عام ١٩٠٦ بلغ ثمان صفحات، وكان المقال الافتتاحى عبارةعن البرنامج الذى يزعم مصطفى كامل السير وفقه فكان يرى كل شئ إلى جعل الجريدة ثقافية وطنية اجتماعية، تدافع عن القضية المصرية، والاسلام وتبسط لقرائها تطور السياسة الدولية، وبعد شهر من ظهورها بلغ عدد المشتركين فيها ثمانمائة مشترك. لقد بذل صاحبها جهودا جبارة لذيوعها لا فى مصر وحدها. بل فى بلاد الشرق أجمع وكون من الشباب طائفة من الصحفيين أمثال محمد فريد وأحمد شوقى وخليل مطران وويصا واصف ومحمد فريد وجدى واسماعيل صبرى، كما استعان بشخصيات لامعة، ولم يفته تعيين مراسلين له فى كبرى العواصم الأوروبية (٢٤). وبذلك لم ينل تقدير الخاصة فقط، بل تعداه إلى الشعب الذى اتخذ منه مدافعا ومرشدا، فلم يكن اللواء صحيفة سياسية محضة، بل كان يهتم أيضا بالمسائل الاقتصادية والأدبية والاجتماعية والعلمية لأن مصطفى كامل كان حريصا على نشر الثقافة والتعليم والتنوير بين المصريين.

مصطفى كامل والحزب الوطنى:

كان اسم (الحزب الوطنى) يطلق منذ بداية ظهور مصطفى كامل على جماعة الوطنيين الذين ينادون بالاستقلال والجلاء، وكان مصطفى كامل

يعتبره موجودا منذ الساعة الأولى، والصحف الأوروبية تعبر عن أنصاره الحزب الوطنى على أنه لم يكن ثمة حزب منظم له رئيس وأعضاء مجلس ادارة، ولكنه كان موجودا بالفعل كفكرة تضم حولها الأنصار والمجاهدين، ولقد قال مصطفى كامل فى هذا الصدد: «ان الحزب الوطنى المصرى الذى جعل أول مراميه وأسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها إليها موجود فيها فعلا من ثلاثة عشر عاما مضت، فهو وان لم يظهر بشكل نظامى ولائحة ولجنة ادارة فقدظهر بأعمال اتفق بها أعضاؤه على خدمة البلاد» (٢٥) بكل قوة، ولقد قاوم الاحتلال فى أوروبا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين وفى عام ١٩٠٧ اعتزم تنفيذ فكرته، بوضع نظام للحزب الوطنى، وفى ذلك يقول أيضا: «ولما كان لكل عمل وقت فقد جاء الوقت لأن يوضع للحزب الوطنى نظام تام يجمع كافة رجاله وأنصاره ومحبيه الذين أمضوا السنوات وهم مشاركون لنا فى العمل بكل أنواع المشاركة» (٢٦). ولقد اعتزم عقب عودته من أوروبا القاء خطبة كبرى بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ جعلها بمثابة دعوة عامة إلى الانضمام إلى الحزب الوطنى.

ولقد انهالت طلبات الانضمام إليه من كل جانب، وعقدت أول جمعية للحزب بمصر يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء، وافتتح مصطفى كامل الجمعية العمومية بخطبة نوه فيها بوجود الحزب الوطنى من قديم، ثم أشار إلى ضرورة تنظيمه، وقال عن أغراض الحزب: «اننا لسنا حزبا سياسيا فقط، بل نحن قبل كل شئ حزب حياة للأمة وانهاض لها، فلا نقفل التعليم بين سائر الطبقات للحظة واحدة، وهو يرى أن الاستقلال أساس كل سعادة ويعمل على نشر التعليم حتى لايبقى

مصرى جاهلا تحت سماء مصر، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الأخرى» (٢٧).

ولقد كان للحزب الوطنى مجهودات كبيرة فى نشر التعليم ونص برنامجه فى البند الخامس على نشر التعليم فى أنحاء البلاد حتى تستفيد منه الطبقات الفقيرة، ونشر المبادئ الدينية وحث الأغنياء على تأسيس الجامعات وارسال البعثات إلى أوروبا وانشاء دراسة ليلية للعمال (٢٨) ولقد استمرت مجهودات الحزب الوطنى التعليمية حتى بعد وفاة مصطفى كامل وزعامة محمد فريد للحزب فقد اتصلت أفكار محمد فريد بالتيار الاشتراكى فى أوروبا ومن ثم فقد أتجه بالحركة الوطنية وجهة جديدة الا وهى محاولة الربط مابين حركة المثقفين وحركة الطبقة العاملة الناشئة فزاد اهتمام الحزب الوطنى بانشاء مدارس الشعب الليلية لتعليم الصناع مجانا (٢٩) ويرجع الفضل فى انشاء المدارس الليلية إلى محمد فريد حيث بذل مجهودا محمودا فى هذا الاتجاه، لاحساسة أن تنوير الشعب شرط أساسى فى محاربة الاحتلال وجلاءه عن البلاد.

رابعا ـ نضاله التربوى:

كان مصطفى كامل من أشد المتحمسين لنشر التعليم وتقوم فكرته الأساسية بصدد ذلك على أساس محاولة اخراج التعليم من دائرة الرقابة الحكومية بتوسيع نطاق التعليم الأهلى، فقد قال فى خطبة له فى ٨ يونيو عام ١٩٠٤ أنه يفضل مدرسة مستقلة على عشرين مدرسة من مدارس الحكومة ومن أجل ذلك وجه مصطفى كامل همه إلى الشعب ووجد أن سياسة انهاضه وتثقيفه وأعلاء مداركه هى أقوم سلاح نحارب به الاستعمار

ونقضى عليه، ففتح المدارس، وألقى الخطب الاجتماعية والسياسية، «وبدأت الجمعيات الخيرية تنشئ المدارس الحرة وهى مؤمنة بأن الشعب اذا زاد نسبة المتعلمين فيه ازداد احساسه بفداحة ماسلب منه وكان أقدر على المطالبة بحقوقه السياسية والاستمتاع بنتائج كفاحه وجهوده الوطنية» (٣٠) ولقد نوه مصطفى كامل بالمعاهد والمدارس التى تأسست فى مصر على عهد محمد على وكان لهذا الفضل فى نهضة مصر القومية، ثم استحث الأغنياء والأعيان فى البلاد على البذل فى سبيل اقامة صرح العلوم والمعارف فى البلاد، وبذلك يتضح مدى اهتمام مصطفى كامل بالتربية والتعليم كشرط لازم لتطور الأمة ونهضتها وتتمثل جهوده التربوية فيما يلى:

١ ـ مدرسة مصطفى كامل (١٨٩٩):

لقد كان من أثر دعوة مصطفى كامل إلى نشر التعليم القومى ان هزت الاريحية اثنين من الشبان وهما محمد أفندى سعيد التومى وأحمد أفندى صادق، فأسسا فى جهة باب الشعرية مدرسة أهلية بسراى العزبى. وطلبا من مصطفى كامل أن يقبل تسميتها باسمه فقبل منهما طلبهما بكل ارتياح وأعلنا عن ذلك فى الصحف فى يناير عام ١٨٩٩ (٣١) ولقد رأى مصطفى كامل فى انشاء هذه المدرسة توجيها للنشء الجديد إلى التربية القومية التى تغرس فى نفوسهم الفضائل الوطنية والدينية. التى تجعلها أكثر استيعابا للمجتمع والواقع الذى يعيشون فيه. ولقد نشر بمناسبة تقبل مصطفى كامل أعباء ادارة المدرسة البيان التالى:

حضرة مدير جريدة المؤيد:

«علم قراء جريدتكم الغراء أن المدرسة المسماه بأسمى بباب الشعرية قد

آل أمرها إلى وأصبح شقيقى هو المدير لها. وأنى أعلم أن حمل المدرسة ثقيل وأتعابها كثيرة ونفقاتها طائلة، ولكن قبلتها بكل ارتياح املا فى خدمة أبناء الوطن العزيز وترقية مدارك الناشئين، وانى أتشرف إليوم باعلان الجمهور أن التعلم فى هذه المدرسة مقرون بالتربية لأنى أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة، بل ربما كان له كثير الأضرار، وأقصد بالتربية، التربية الاسلامية المحضة لأن أساس التربية الدين، وكل أمة يتربى أبناؤها على غير قواعد الدين تكون عرضة للدوار والانحطاط، وقد رأيت بنفسى فى أغلب مدارس أوروبا اهتماما فائقا بتعليم الدين المسيحى للناشئين لذلك عولت على جعل الغرض الأول من المدرسة ترقية الملكة الاسلامية عند التلاميذ وتمكين مبادئ محبة الوطن والاتحاد والائتلاف فى نفوسهم، وتقويم اللغة العربية على كل لغة مع ترك الحرية لآبائهم فى الاختيار لهم بين اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية، ورغبة فى نفع أبناء الفقراء قررت قبول ثلاثين فى المائة منهم مجانا، وأنى أسأل الحق سبحانه وتعإلى أن يوفقنى وجميع المصريين لخدمة الوطن العزيز الذى أرى السعادة الكبرى فى التفانى لأجل سعادته، هذا وأرجو منكم أن تتفضلوا بنشر هذه الكلمات فى محليات جريدتكم.

مصر فى ٢٨ مارس سنة ١٨٩٩.

المخلص

مصطفى كامل (٣٢)

وقد انتقلت المدرسة فى يناير عام ١٩٠٠ من سراى العزبى إلى سراى السلحدار بشارع أمير الجيوش البرانى، وعنى مصطفى كامل بأمر

هــذه المدرسة ووضع لها برنامجا خاصا يجمع بين التعليم وتهذيب الأخلاق. وفى ٢٤ يناير عام١٩٠٠ زار بعض الضيوف الأوروبين مدرسة مصطفى كامل فأعربوا عن سرورهم لحسن النظام والطاعة التى تعم المدرسة وانتهز الزعيم فرصة هذه الزيارة فاستعرض فى اللواء كيف ارتفع المستوى العلمى بعد أن انخفض منذ الاحتلال ثم طالب بانشاء مدارس خاصة أخرى موضحاً ان عدم اهتمام الحكومة بالتعليم وتهاونها له أضراره الكبيرة (٣٣).

وفى أول أكتوبر عام١٩٠٠ وهو موعد الاحتفال بتوزيع الجوائز على الطلاب المتفوقين فى مدرسته قام على فهمى كامل ناظر المدرسة بقراءة تقريره ثم وقف الزعيم الشاب وألقى كلمة حماسية أوضح فيها محاسن التعليم وفوائده مذكرا مواطنيه بأن حرية الأمة لاتنال إلا بمجهود أبنائها وقوة نضالهم فى سبيل تحقيق الاستقلال حيث قال: «أن كل فرد مهما كان صغيرا مطالب بواجب يؤديه لبلاده ووطنه وأمته ولو ترك كل مصرى لأبنائه من بعده حب العمل وعدم الاعتماد على الغير لأصبحنا وفينا حياة طيبة تحى الآمال وتبعث العزائم عند الرجال وانى لست أرى لبلادى آفة تهددها بالفناء مثل اعتقاد أبنائها أن الحكومة هى كل شئ وبيدها كل أمر وعليها كل واجب وأنهم لايسألون عن هذا الوطن أبدا على حين أن التاريخ ينطق بأفصح بيان بأن الأمة تعتمد فى كل شئونها على حكومتها أمة منزلتها من الحكومة منزلة العبد من سيده.. وهاهى الأمم الغربية نجدها تسبق حكوماتها فى فتح ا لمدارس وانشاء المكاتب وتأسيس المستشفيات والقيام بكل عمل خطير مع أن حكوماتها من الثروة وقوة السلطان بمكان»(٣٤) وبذلك كان اهتمام مصطفى كامل منصبا على أمور التعليم والتربية فى البلاد.

٢ ـ نادى المدارس العليا:

ومما لاشك فيه أن دعوة مصطفى كامل قد أثرت كذلك فى انشاء نادى المدارس العليا عام١٩٠٥ اذ فكرت طائفة من الشبان فى انشاء ناد للمدارس العليا يجمع بين طلبة هذه المدارس وخريجيها، وكان هذا النادى من أعظم مظاهر الحركة الوطنية اذ بدأت تظهر فيه حركات فكرية قومية (٣٥) أنتجت على مر السنين عدة مشروعات جليلة كان لها فضل كبير على النهضة الوطنية فقد ظهرت فيه قوة الشبيبة ووحدتها، وامتزج الطلبة بالخريجين فاكتسبوا بهذا الاتصال النضج الفكرى والمعنوى وفيه ألقى اعلام الفكر والعلم المحاضرات القيمة فى مختلف العلوم والفنون. وفى قاعات نادى المدارس العليا اجتمعت وقت مالجنة انشاء الجامعة المصرية ومنه أيضا تأسست مدارس الشعب فأنشئت عدة مدارس لتعليم العامة وقام أعضاء النادى بالتدريس فيها. ولقد كان نادى المدارس العليا ـ الذى لانجد له نظيرا حتى إليوم لطلاب الجامعات فى كل من القاهرة والإسكندرية ـ الوعاء لهذه المشروعات!

(أ) مدارس الشعب:

نبتت فكرة انشاء مدراس الشعب التى يعلم فيها الاساتذة الكبار أمثال عمر لطفى وكيل مدرسة الحقوق، وأحمد لطفى نقيب المحامين فيما بعد والشيخ عبد العزيز جاويش ومحمد فريد وغيرهم لمئات العمال دروسا فى القراءة والكتابة والحساب والتاريخ والتربية الوطنية والشئون الاجتماعية والمبادئ النقابية وأصول الحركة التعاونية (٣٦). وقد كان هذا

المشروع سياسيا فى الدرجة الأولى، لأنه لايحارب أمية العمال بقدرماينشئ الصلة بين طائفتين ثوريتين بطبيعتهما فى كل وطن وزمن: الطلبة والعمال وهذا العمل وحده يفيد دفعة لحركة الاستنارة المصرية فى تثقيف العمال وتوعيتهم بواجباتهم السياسية والقومية، حيث أنهم عماد أى ثورة يمكن أن تقوض النظم الظالمة وتقاوم الاحتلال الذى اتبع سياسة التجهيل تجاه الشعب.

(ب) رعاية الطفولة والأمومة:

أما المشروع الثانى الذى خرج من نادى المدارس العليا فقد كان مشروع مراكز رعاية الطفل، الذى كان أول مشروعات الحركة الوطنية فى عهد مصطفى كامل فى المجال الاجتماعى تبعه مشروع ملاجئ الأطفال إليتامى، ثم مشروع التعاون ثم مشروع الهلال الأحمر المشروع يأخذ برقاب المشروع [٣٧]، حلقات متصلة كان الفضل فى اخراجها للناس وفى بسط نور اشعاعها على الأمة، وايقاظ وجدانها نادى المدارس العليا، الذى نأمل أن يكون موجودا الآن فى جامعاتنا المصرية، حيث يزيد ترابط الطلاب بالخريجين ولقد وسع نادى المدارس العليا نطاق الحركة الوطنية وارتقى بأساليبها وقوى وحدة الطلاب على طريق الجهاد الوطنى والاجتماعى، وجعل منهم طليعة التقدم والتطور وأشعرهم بدورهم، روادا وقادة، فأدوا هذا الدور على أحسن مايكون الأداء خطباء، وأعوانا للحركة الوطنية ومناضلين بالفكر وإليد حتى كان منهم الشهداء الذين لقوا ربهم ووقود الثورة فى السجون والمنافى والمعتقلات وقادوا المظاهرات وصنعوا الشعارات ووزعوا المنشورات وأطلقوا الرصاص. فقتلوا من جنود الاحتلال وأعوانه عددا أشعر الاحتلال ان مصر ترفضه

وأطلق الاحتلال وأعوانه الرصاص عليهم، فقتل منهم عددا، كانت دماؤهم زادا للحركة الوطنية خرجت بها من دور الاستعداد إلى دور الصلابة والقتال الحقيقى للاحتلال.

٣ ـ اضراب طلاب مدرسة الحقوق عام ١٩٠٦:

وفى فبراير عام ١٩٠٦ اضرب طلاب مدرسة الحقوق الخديوية على نظام نظارة المعارف الجديد الذى يقضى بوضع مدرستهم فى مصاف المدارس الابتدائية والثانوية. كان هذا هو الاضراب الأول من نوعه اذ اجتمع الطلاب فى فناء حديقة الأزبكية يوم ٢٦ فبراير معلقين معارضتهم لطريقة التعليم التى ينتهجها المستعمر فى البلاد. وانتشر خبر هذا الاضراب وانضم إليه طلاب المدارس الأخرى، ولكن اللورد كرومر أمر نظارة المعارف باتخاذ خطوة حاسمة ضد هذا الاضراب، فما كان من نظارة المعارف الا أن هددت بفصل الطلاب الذين لايستأنفون دراستهم يوم ٣ مارس.

ولقد ناصرت جريدة اللواء المصريين وساندتهم فى مطالبهم وهكذا نشأت علاقات وطيدة بين شباب المدارس والحركة الوطنية، وأعلن مصطفى كامل معلقا على هذا الحادث حيث قال: «قضت البلاد أسبوعا كاملا وهى شديدة الاهتمام بمسألة الطلبة وقد دل هذا الاهتمام العظيم على أن أمر التعليم أصبح عند الأمة المصرية فى مقدمة أمورها الحيوية وأن لناشئتها المحل الأول من عنايتها، وان رجال الغد هم موضع الآمال كلها، لقد أظهر اضراب الطلبة أمورا جمة وأنتج نتائج عدة، أظهر خلل نظارة المعارف وفساد سياستها وسوء ادراتها وعدم كفاءة المديرين لها، أظهر أن الطلبة وكلهم

ولدوا فى عهد الاحتلال وتربوا بمقتضى النظم التى وضعوها ليسوا كما شاء أعداء مصر والمصريين جبناء أذلاء، بل أنهم ذو أباء وشمم وعواطف راقية وارداة حقيقية، ظهر أن رجال الغد متضامنون متكاتفون عارفون لمعنى الاتحاد والاتفاق، عنيدون على حقوقهم، محبون للعدالة، متشربون بروح الاستقلال» (٣٨).

ولقد عاد الطلاب إلى مدارسهم بعد أن وعدوا بالنظر فى مطالبهم بينما رقى «دوجلاس دنلوب» سكرتير عام نظارة المعارف والمتسبب الأول لفساد النظام الدراسى إلى رتبة مستشار المعارف، وهكذا عاند الاحتلال بترقية مستشاريه ، ضاربا باضراب الطلاب عرض الحائط الا أن دلالة ذلك كله يدل على أن نمو الحركة الوطنية قد اشتد ساعدها وأخذت تمارس حقوقها السياسية، بفضل جهود نادى المدارس العليا وكذلك بفضل جهود مصطفى كامل فى توحيد صف الطلاب وتوعيتهم بحقوقهم الوطنية والقومية. ولقد عبر ذلك كله للمستعمر ان مصر لن تبقى مكتوفة الأيدى ازاء استهتاره بشئونها ولاسيما الشئون التعليمية التى تساعد على خلق جيل قادر على الدفاع والنضال عن حقوق البلاد واستقلالها وحريتها وسيادتها الوطنية ويبقى فضل آخر لمصطفى كامل فى نضاله التربوى والتعليمى وهو:

٤ ـ الجامعة الأهلية:

ترجع الجذور الجنينية لفكرة الجامعة الأهلية لمحمد عبده ـ كما سبق أن أوضحنا ـ ولكن تبنى الفكرة والدعوة لها والنضال من أجلها.

يعود لمصطفى كامل، ففى سنة ١٩٠٥ دعا إلى فكرة من أعظم أفكاره، تلك هى فكرة انشاء الجامعة الأهلية، وقد كانت هذه الفكرة التى استولت على لبه منذ البداية، فقد كان يشكو مر الشكوى من أن اسلوب التعليم لدينا لايدعو إلى توسيع آفاق الفكر، وخلق المواطن المستنير الواعى. وانما يقوم على حشو العقول بالمعلومات(٣٩) وفى ٩ يونيو عام ١٩٠٥ تحدث مصطفى كامل إلى مدام جولييت آدم فى رسالة لها عن سروره بأن مشروع الجامعة الأهلية يسير فى طريق النجاح، اذ تم الاتفاق على ارسال بعثة إلى أوروبا لتكون نواة التدريس فى الجامعة الأهلية.

وأخيرا فان مصطفى كامل لم تتوقف جهوده ونضالاته عند حد القضية الوطنية والمسألة المصرية، بل تعدت ذلك إلى مجال التربية والتعليم على اعتبار أنه ركن أساسى فى تقدم وتطور المجتمعات حيث بدونه لايمكن أن تستقيم الأمور، ولايمكن للشعب أن كان جاهلا أن يعى حقوقه ومطالبه وضرورة نضاله الوطنى والقومى، فالأمة الجاهلة أسلس قيادة من الأمة المتعلمة. هكذا تصور المستعمر وأعوانه أنه يستطيع أن يقود مصر إلى تحقيق أحلامه طالما بقيت جاهلة وهكذا دعا المناضلون الوطنيون بأهمية التعليم وضرورته كمطلب أساسى من مطالب العصر الحديث وتكوين الأمة الواعية المستنيرة. واذا كان مصطفى كامل قد وعا هذا جيدا. فلأنه استفاد من التراكم الكمى والكيفى لنضال أبطال سبقوه فى هذا المضمار.

ولقد عرضنا لهم جميعا. ويبقى هؤلاء الرواد الأوائل لحركة

الاستنارة الفكرية والتعليمية فى مصر فى القرن التاسع عشر، علامة مضئية أمام تطور الفكر التربوى، وكذا أمام بقية المناضلون الذين أتوا من بعدهم لكى ينهضوا بالبلاد من خلال اصلاح احوال التربية والتعليم فيها.



الهوامش والمصادر

١ ـ عبد الرحمن الرافعي، **مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية**، (القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٦٢)، ص ١٩ .

٢ ـ المرجع السابق، ص ٢٥ ـ ٢٦ .

٣ ـ فتحى رضوان، **مصطفى كامل**، (سلسلة اقرأ العدد ٣٩٠، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٤)، ص ٣١ .

٤ ـ أحمد رشاد، **مصطفى كامل ـ حياته وكفاحه**، (القاهرة، دار السعادة، ١٩٥٨) ص ٣٧ .

٥ ـ فتحى رضوان، مصطفى كامل، مرجع سابق، ص ٣٣ .

٦ ـ أحمد رشاد، مصطفى كامل ـ حياته وكفاحه، مرجع سابق، ص ٤٢ .

٧ ـ عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مرجع سابق، ص ٣٧ .

٨ ـ فتحى رضوان، مصطفى كامل، مرجع سابق، ص١٦٦ ـ ١٦٧ .

٩ ـ عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مرجع سابق، ص٥٨ .

١٠ ـ المرجع السابق، ص ٣٨ .

١١ ـ جرجس سلامة، **أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر** (القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٦٦)، ص ٣٤١ .

١٢ ـ عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، ص ٢٩ .

١٣ ـ المرجع السابق، ص ص ١٠ ـ ٣١ .

١٤ ـ جرجس سلامة، **أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر**، ص ٢٤١ .

١٥ ـ عبد الحميد فهمي مطر ، **التعليم والمتعطلون في مصر** (الاسكندرية، مطبعة محمد على الصناعية، ١٩٣٩)، ص ١٨ .

١٦ ـ نعمان عاشور، **بطولات مصرية من عمر مكرم إلى بيرم التونسي** (القاهرة، روزاليوسف، ١٩٧١)، ص ١٥٦ .

١٧ ـ جريدة المؤيد، عدد ١٠ مارس، عام١٨٩٦ .

١٨ ـ عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مرجع سابق، ص ٢٦١ .

١٩ ـ نعمان عاشور، بطولات مصرية من عمر مكرم إلى بيرم التونسي ، ص ١٥٨ .

٢٠ ـ جريدة اللواء، عدد٢٥ أكتوبر، عام١٩٠٤ .

٢١ ـ اللواء، العدد ٢٣ مايو، عام١٩٠٧ .

٢٢ ـ نعمان عاشور، بطولات مصرية، مرجع سابق، ص١٦٠ .

٢٣ ـ أحمد رشاد، مصطفى كامل ـ حياته وكفاحه، مرجع سابق، ص ١٤٦ .

٢٤ ـ نعمان عاشور، بطولات مصرية، مرجع سابق، ص ١٦٢ .

٢٥ ـ أحمد رشاد، مرجع سابق، مرجع سابق، ص ١٥٣ .

٢٦ ـ جريدة اللواء ، عدد ١٠ أكتوبر، سنة ١٩٠٧ .

٢٧ ـ جريدة اللواء ، عدد ١٠ أكتوبر، سنة ١٩٠٧ .

٢٨ ـ عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مرجع سابق، ص ٢٦٥ .

٢٩ ـ أحمد رشاد، مصطفى كامل، حياته وكفاحه، مرجع سابق، ص ٢٧١ .

٣٠ ـ شهدى عطية الشافعى، **تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ ـ ١٩٥٦** (القاهرة ، الدار القومية، ١٩٥٧)، ص ٢٢ .

٣١ ـ محمد خبرى حربى والسيد العزاوى، **تطور التربية والتعليم فى مصر فى القرن العشرين** (القاهرة، مطبعة وزارة التربية والتعليم، ١٩٥٨)، ص ٢٢ .

٣٢ ـ جريدة المؤيد، عدد أول يناير، عام ١٨٩٩ .

٣٣ ـ عبد الرحمن الرافعى، مصطفى كامل، مرجع سابق، ص ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

٣٤ ـ أحمد رشاد، مصطفى كامل ـ حياته وكفاحه، مرجع سابق، ص ١٥٥ .

٣٥ ـ المرجع السابق، ص ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

٣٦ ـ جرجس سلامة، أثر الاحتلال البريطانى فى التعليم القومى فى مصر، ص ٣٩٥ .

٣٧ ـ فتحى رضوان، مصطفى كامل، مرجع سابق، ص ٢٠٨ .

٣٨ ـ المرجع السابق، ص ٢١٠ .

٣٩ ـ أحمد رشاد، مصطفى كامل ـ حياته وكفاحه، مرجع سابق، ص ٢٠٨ .

٤٠ ـ فتحى رضوان، مصطفى كامل، مرجع سابق، ص ٧٤ .

محتـويـات
الكتـاب



فهرس المحتويات

تابع : فهرس المحتويات

تابع : فهرس المحتويات

من إصدارات المكتبة التربوية

● التربية البيئية	د. ابراهيم عصمت مطاوع
● التربية والنظام السياسى	د. شبل بدران
● سياسة التعليم فى الوطن العربى	د. شبل بدران
● كما يكون المجتمع تكون التربية	د. شبل بدران
● التعليم والتحديث	د. شبل بدران
● علم الاجتماع التربوى	د. عبد السميع سيد أحمد
● نحو فلسفة تربوية لبناء الأنسان العربى	د. عبد الفتاح إبراهيم تركى
● التربية عند هيجل	د. عبد الفتاح الديدى د. عصام الدين هلال
● اقتصاديات التربية	ج.ب. أتكنسون، ترجمة: عبد الرحمن بن أحمد صائغ
● التعليم والتنمية	د. شبل بدران
● طرق تدريس اللغة العربية	د. زكريا اسماعيل
● المناهج الدراسية	د. محمود أبو زيد د. أسماء محمود غانم
● أسس التربية	د. أحمد فاروق محفوظ د. شبل بدران
● تربية الطفل	د. ثناء يوسف العاصى
● التربية المقارنة	د. شبل بدران
● علم اجتماع التربية المعاصر	د. شبل بدران د. حسن البيلاوى
● مناهج البحث فى العلوم التربوية والنفسية	د. محمد الطيب د. حسين الدرينى د. شبل بدران د. حسن البيلاوى د. كمال نجيب